عبد الرزاق بوكبّة

يدان لثلاث بنات

ويليه: بوصلة التّيه

سيرة

يدان لثلاث بنات

ويليه: بوصلة التّيه

سيرة

عبد الرزاق بوكبّة

يمكن الحصول على هذا
الكتاب وغيره من كتب
الجزائر تقرأ الأخرى
وماتشتهيه من كتب عبر
متجرنا الإلكتروني مع توصيل
لباب البيت

DZREADS.COM

‹الجزائر تقرأ›

إلى الأيّام التي وُلدت فيها بناتي علياء ونجمة ومريم، من أعوام 2009 و2012 و2014. حيث أصبحت الحكاية عندي ثلاثية الأبعاد.

عبد الرزاق

abdezak@hotmail.com

إشارة: كتبت هذه التجربة في رمضان من أعوام 2015 و2016 و2017.

تمهيد

كانت القرية تحمل بناتها على الرّعي حتى إذا خُطبن حُجبن. أمّا التي لم يزرها الحظّ والنّصيب، فتبقى على قيد الرّعي حتى تدركها رعاية الرّب. كان المرعى الكبير يغلي بعشرات الرّاعيات والرّعاة، يلتقون جميعًا، تحت شجرة الخرّوب، ويقيمون عرسًا يتزوّج فيه، من باب التمثيل، راعٍ براعيةٍ تختارهما «خ» التّراس، فهي كبيرة المرعى، ولا يتمّ أمر من غير مصادقتها عليه.

كانت الفتيات يتكفّلن بجلب الدّقيق والسّمن والتوابل، من بيوتهنّ، لإعداد الطّعام في الطّنجرة الكبيرة المنصوبة، دومًا، في الخلاء. وكان الفتيان يتكفّلون بالهجوم على أحد قطعان القرى المجاورة، لخطف خروفٍ يُذبح على شرف العريسين، فتشتعل الرّغاريد والأهازيج وطلقات البارود.

مرّةً.. قرّرت «خ» أن تكون هي العروس، ويكون عبد الرزاق بوكبّة عريسَها. كان عمري اثني عشر عامًا، وكنتُ في بداية وعيي بالجسد. سلام عليَّ وأنا أسوق الفرس بخضراء إلى شجرة الخرّوب، حيث كوخ من الدّفلى، يدخل إليه العريسان، هنيهةً، من باب التمثيل. كم قبلة مخطوفةً شهدها الكوخ؟

سلام علي وأنا أدخل الكوخَ خلف «عروسي». سلام عليَّ وهي تنزع عنّي ثيابي. سلام عليَّ وهي تمصّني مصّ الخوخة النّاضجة. سلام عليَّ وأنا أعيش مقامًا وسطًا بين الخوف واللّذات. سلام

عليَّ وأنا أخترق الكوخَ هاربًا إلى حوشنا. سلام عليَّ وأنا أصل البيت، مثل ديكٍ منتوف، فأخبر أبي بالأمر. سلام عليه وهو يمدّ يدَه إلى بارودته. سلام على «خ» وهي تهرب من موتها بين أشجار الدّفلى. سلام على الشّيوخ وهم يتدخلون ليُخمدوا الفضيحة.

أصدر أبي قرارًا لا يقبل النّقاش: من الآن فصاعداً، لن ترعى إلا وحدك». صرت أسمع أهازيج المرعى وزغاريدَه، عن بعدٍ، فيتملّكني الإحساسُ بالغربة. وهي اللحظة الأولى التي أسّست علاقتي بالكتابة، حيث شرعتُ في تأليف أغنياتٍ، كنتُ أسرّها إلى المرعى، عن طريق بنات عمّي، فتعتمدها «خ» في الأعراس.

حين بلغني موتها، عام 1994، ذهبتُ إلى شجرة الخرّوب، وقد أصبحت طقوس المرعى من الماضي/ أصلحتُ الكوخَ/ استدعيتُ «خ» في الخيال/ اعتذرتُ لها على هروبي من بين يديها/ مددتُ يدي إليها/ نزعتُ ثيابي تمامًا، فشرعت السّماء في البكاء.

سمكة رمضان

ما أن أغلقتُ عليّ بابي، في اليوم الأوّل من رمضان، وفتحتُ باب الكتابة، بأن بعثرتُ عشرات الكتب الحميمة في زوايا المكتبة، وأعليتُ موسيقى كرديةً خاثرةً، وقبضتُ ستارة النّافذة المطلّة على مشهدٍ عانق فيه اخضرارُ الرّبيع اصفرارَ الصّيف، حتى تهاطل عليّ الطرقُ المعجون ببكاء. إنّهما الشقيّتان علياء ونجمة ومريم الثّالثة الأخرى. هل ذهبت كلّ وصاياي لهنّ بنسياني، حين أدخل مكتبتي، أدراجَ الأنهار الجارية؟

. ماذا هناك؟

. مريم ترفض أن نغيّرَ قناتها، لنشاهد فيلمًا في قناتنا. إمّا أن تخرج إليها، وإمّا ستجدها جثّة منكوبة.

—

فلاش باك

—

كان أبي يلسع ظهرَ أمّي بحزامه الجلدي، وهي تواجه ذلك بصمتٍ صارخ، كأنّها كانت تتلقّى قُبلاتٍ. بينما كنتُ متكوّرًا على نفسي خلف الشّجرة، وأتلقّى المشهد بعينين ماطرتين.

وسبب الضّرب أنّها لم تتدخّل لتُسكتَ بكائي في وجه قيلولته.

تمرّد الواقع

جعل رقصُ الحزام الجلدي في يدي، أمَّ علياء تبادر إلى القول إنّها

كانت غارقةً في المطبخ، وإلا ما كانت لتسمح بالتّشويش علي. وجعل مريمَ تطلق ضحكاتٍ ماكراتٍ في وجه أختيها، ظنًا منها أنّ الحزام موجّه لنصرتها في الإبقاء على قناتها.

تمرّد الخيال

عدتُ إلى خلوتي. فواجهني منظر مخيف: شخوص الرّواية يحملون جميعًا أحزمةً جلديةً، ويلوّحون بها في وجهي.

. ماذا هناك؟

. إمّا أن تفرض الهدوء التّامّ في البيت، وإمّا سنتولّى نحن ذلك. لسنا مستعدّين لأن نبوح لك بشيءٍ في ظلّ هذه التشويشات وإلا..

. وإلا ماذا؟

. نعود إلى سباتنا الرّوائي، فتضطرَّ إلى انتظارنا إلى رمضان القادم. هذا إذا عدنا إليك أصلًا، ولم نذهب إلى كاتبٍ سواك.

هزّ الصّياح أركان البيت: أمّ علياء تصيح/ علياء تصيح/ نجمة تصيح/ مريم تصيح.

—

فلاش باك

—

قادني صراخ نساء أعمامي إلى مربط الفرس، فرأيت جدّتي مريم ملقاةً، مثل سرجٍ قديمٍ على الرّوث. وصكّة الفرس مطبوعة على جبهتها، مثل ختمٍ وقّعه إداري غاضب.

حيلة العجوز

خرجتُ من مكتبتي مفجوعًا مثل مخطوطٍ مسروق:

. ماذا صار؟
. أمّك أغمي عليها.

كان فمها يرسل فقاعاتٍ بيضاءَ، ويمناها ترتعش بما يوحي أنّها ستلتحق برفيقها الأعلى فورًا. اختلط الصّراخ بالصّراخ والخوفُ بالخوف والدّعاءُ بالدّعاء، وفي اللحظة التي أوشكتُ فيها على أن ألقى مصيرَها نفسَه كمدًا عليها، فتحتْ عينيها واستوت في جلستها ودعتنا جميعًا إلى أن نسمعها.

غمزتني بما يعني أنّها كانت تمثّل: لم يُغمَ عليّ بسبب الصّوم على مرضٍ كما اعتقدتم، بل لأنّني رأيت رمضان، [قامت علياء ونجمة اندهاشًا، أمّا الصّغيرة مريم، فكانت تفعل فعلتها في المطبخ، من غير أن ينتبه إليها أحد] وطلب منّي أن أخبر البنات بأنّه سيرحل عن البيت في حالة تشويشهنّ على أبيهنّ، وزرعهنّ الفوضى في البيت.

وضعت علياء ونجمة يديهما على فميهما، كنايةً عن تركهما الكلامَ، حتى لا يهجر رمضانُ البيتَ، وهو الوضع الذي أفرحني وسحبني إلى خلوتي الرّوائية مجدّدًا. فوقفتُ على مشهدٍ مخيف: شخوص الرّواية يضعون أشرطةً لاصقةً على أفواههم، وقد كتبوا على جباههم: «نريد كاتبًا عازبًا».

هممتُ بالكلام، فأطلقتْ مريم صرخةً اهتزّت لها العمارة والأرواح. كانت قد فتحت الفرن وسحبتْ منه سمكةً تغلي، مثلما كنتُ أغلي في بهو المستشفى، منتظرًا دورَها، قبل أن يَرفَع مؤذّن المغرب عقيرتَه الجائعة.

أرجوحة مفخّخة

أستطيع أن أقنعَ سنيًّا بأن الخميني وليُّ الله، وأقنعَ شيعيًّا بأنّ معاوية وابنَه يزيدًا من الملائكة الأطهار، لكنّني لا أستطيع أن أجعل الصّغيرة مريم ترجع عن رغبةٍ رغبتْها أو قرارٍ قرَّرته.

من ذلك أنّها عبّرت عن رغبتها في أن تتأرجحَ في أرجوحة الحومة، بعد أن زرعتْ فيها علياء ونجمة هذه الدّودةَ في غفلةٍ منّي، وقد أدركتا أنّ الأرجوحة باتت خطرًا على من يمرّ بالقرب منها، خلّيكم يا راكبها. فأرضيتُها تراب مخلوط بمساميرَ وقطع حديدٍ مدبّبٍ، لم نعثر لزارعها على مسمار في حذاء، وقاعدتها الخشبيّة غربالًا باتت، وسلسلتها تفكّكت فشدَّها أهلُ الخير والشرّ بأشياء تدّعي أنّها خيوط، أمّا أعمدتها الحديدية، فكأنها شاركت في ثورة الفيتنام.

—

فلاش باك

—

كنتُ طفلًا في قرية «أولاد جحيش» (1)، وكنت أحبّ أن أتدحرج، فانتظرتُ، يومًا، أمّي حتى أسلمتْ نفسَها لعسل القيلولة، وأزلتُ الغسيلَ عن الحبل، قاصدًا به شجرة الزّعرور.

كافحتُ في ربط الحبل إلى أقوى غصنٍ، وأسلمتُ مؤخّرتي للأرجوحة، التي أسلمتني لهاويةٍ يستغرق الوصولُ إلى قعرها أن تستمع إلى إحدى أغاني أمّ كلثوم. ولولا عودة بنات العمّ بقطيعهن مغربًا، لمكثتُ هناك حتى أصير ذكرى أغنيةٍ في بالٍ مفجوع.

تشويش القبّرة

واظبتْ أمُّ علياء على طرق باب خلوتي، وليس من عادتها أن تزعجني حين أغرق في الكتابة.

انتفض شخوصُ الرّواية في وجهي: استطعنا أن نتأقلم مع تشويش البنات، أمّا أن تنخرط أمُّهن في المسعى، فما علينا إلا نشدّ الرّحال إلى روائيٍّ عازبٍ أو عاقر.

. لعلّها احتاجت أمرًا لا يقبل التأجيل. هل نسيتم كوني الرّجلَ الوحيدَ في البيت؟

. ما يبدو هو نسيانُك أنّنا انتظرناك شهورًا لتكتبنا، وأنت لا تكتب الرّواية في غير رمضان، ومن طبيعة أيّامه مرورُها السّريع.

خرجت مثقوبًا بالغضب، فتفادته بالتّوضيح:

. مريم تشترط أن تأكلَ وتشربَ وتنامَ بأن تتأرجح.

. فلتأخذها جدّتها.

. تعلم أنّ الجدّة ترفض فكرة الأرجوحة أصلًا.

فخّ معلّق

وَسْوَسَني فتورُ حماس علياء ونجمة لمرافقتي، فهما تكادان أن تفعلا ذلك حتى إلى المرحاض. لكنّني نسيتُ أمرهما، بفعل تفكيري في العودة سريعًا إلى خلوتي الرّوائية، خاصّةً أنّني تمكنتُ من استدراج الفتى «ن» إلى فخّ الحكاية، بعد أن كان أقلَّ الشّخوص حماسًا.

وضعتُ الصّغيرةَ في الأرجوحة، التي وضعتْ في رأسي هذا السّؤال: «أيّة حكومةٍ هذه التي عجزتْ عن توفير أراجيحَ آمنةٍ لصغارها؟»، وإذا بالعمود الحديديّ العلويّ يهوي على رأسي، فاجتهدتُ في التّوفيق بين أن أمارس حقّي في الدّوخة، وواجبي في حماية صغيرتي ورفع يدي بتوعّد علياء ونجمة، اللتين أطلّتا علي من شرفةٍ زلزلتاها بالقهقهات.

(1)

أولاد جحيش: قرية في الشّرق الجزائري هي مزيج من الثّقافتين العربية والأمازيغيّة.

ركض مشبوه

تعتقد أمّي أنّ الرّكض، مسافةً طويلةً، يؤدّي إلى الجنون. وهو اعتقاد جعلني أبذل، يوميًا، جهودًا عاقلة لإقناعها بخروجي إلى الرّكض، في الغابة المجاورة لحومتنا.

—

فلاش باك

—

يا وليدي كان الفتى موسى يرعى خيل «أولاد جحيش» في مرعى يبعد مسافةً تكفي لإعداد شخشوخةٍ (2)، وإذا بالسُرّاق يقتحمون عليه خيلَه، فما كان منه إلا أن ركض ليخبر القرية، لكن الجنَّ أخذوا منه عقلَه، بمجرّد أن أخذ منه الرّجالُ الخبرَ. هل تريد أن تصبح مهبولًا مثل موسى؟

إصرار الغابة

قلت لشخوص روايتي إنّني خارج إلى الغابة لأركض، فاهتمامي بإدخال كرشي، لا يقلّ حرارةً عن اهتمامي بإخراجكم إلى الوجود.

. نرافقك.
. لكنّني سأكون مشغولًا عنكم، بالركض في الغابة والموسيقى.
. نرافقك.
. لن يستغرق غيابي أكثرَ من خمسين دقيقة.
. نرافقك.

فلاش باك

قال جدّي الميلود إنّه خارج إلى الجبل ليجلب الحلفاء، كيما يصنع منها قفافًا يجمع فيها القمح بعد الحصاد.

. أرافقك.
. لكنّك حديث عهد بالختان، وبردعة البغلة حرشاء.
. أرافقك.

كانت البغلة ترتفع وتهوي بين الأحراش، وكنتُ خلف الجدّ أحتكّ على عريٍ بالبردعة، فلا أنا أستطيع أن أتحمّل أو أستطيع أن أطلب إنزالي. ولولا سقوط قطراتٍ من دم ختاني على قدم الجدّ، ونزوله لانتشال الموقف، لعدتُ إلى البيت بفخذين فارغين.

مسافة مفخّخة

تعودتُ على أن أركض وحدي، أو مع صديقين غارقين في الصمت. وها أنا أركض مع شخوصٍ كأنّهم بلعوا الفضائيات العربية كلَّها. كان هذا يُناطح هذا من أجل أن يكون بقربي، إلا الفتى «ن»، فقد أخذ مسافةً منّا. أخشى ما أخشاه أن يتراجع عن رغبته في الحكي، فيختلّ معمار الرّواية، وأحرم من كتابة جرحٍ بليغ. ما أتعس الرّوايات التي بلا جرح!

توغلنا في الغابة، فتوغلوا في المشاكسة: هذا يَتَعَنْكَشُ في شجرةٍ، وهذه تعتلي صخرةً وتصرخ، وهذا يبول على مرأىً من الجميع، إلا الفتى «ن»، فقد بقي محافظًا على صمته ومسافته. الحقَّ.. الحقَّ أقول إنّني

أخاف الصّامتَ أكثر من الثّرثار، سواء في الواقع أو في الرّواية. أليست الرّواية واقعًا؟

اشتعل جسدي عرقًا، بالموازاة مع اشتعال الشّجار بينهم. إذ كان كلّ واحدٍ منهم يقول للآخر إنّه سيكون أوّلَ من أكتبه بعد الدّوش. وتهاطل علي سؤال: «أليس كذلك؟». كان لازمًا أن أضع حدًّا لذاك الوحل، فاستدرتُ عائدًا إلى الحومة/ لحقوا بي/ ضاعفتُ سرعتي/ ضاعفوا سرعتهم/ كان منظري غريبًا بوضع إصبعيَّ في أذنيَّ جاريًا، حتى لا أسمع حريقَ فوضاهم/ التفتُّ إليهم، عند مدخل الحومة. بينما كانت علياء ونجمة تلعبان هناك، وأطلقتُ صرخةً ذاتَ أغصان: أين «ن»؟

حين صعدت إلى البيت بعد ربع ساعة من الانهيار على سلّم العمارة، وجدت أمّي تتخبّط في حسرتها: «نبّهته إلى ارتباط الرّكض بالجنون». وبعض الجارات يُواسينها: لا تصدّقي علياء ونجمة، فهما تبالغان دائمًا، كونهما رأتاه يتحدّث وحده، لا يعني أنه فقد عقله.

تحسّستُ منطقة الإنجاب: ليتني تركتُ هذا الشّيءَ في البردعة، يوم خرجت مع جدّي إلى الحلفاء.

---

2 . الشّخشوخة: من أنواع الثّريد.

شهادة مذبوحة

من المقامات الإنسانة التي تدهشني، وتقف أمامها بلاغتي عجوزًا، عجزَ ثعلب أمام سياج بستانٍ مُفَوْكَهٍ، البكاءُ من فرح. حيث تأخذ الضّحكة شكلَ الدّمعة، من غير أن تفقدَ روحَها.

البحث عن الولد «ن»

كانت العاشرة صباحًا، بينما كان الجميع نائمين في البيت. فتسرّبتُ إلى مكتبتي لأصْحيَ شخوصَ روايتي، كما يتسرّب أبو العيال، بعد أن يناموا، إلى سرير أمّهم. فإذا بهم جميعًا يغطّون في النّوم والشّخير.

صدمني أن «ن» لم يعد من الغابة منذ أمس، وتضاعفت الصّدمة، حين تخيّلتُ أنه لن يعودَ أبدًا. لستُ من الرّوائيين، الذين يؤمنون بأنّ الرّواية تقوم على بطلٍ واحدٍ، فهي ثمرة لتعدّد الأصوات، و«ن» في هذه الرّواية يمنح لتعدّد أصواتها معنًى. فماذا لو اتخذ سبيلًا مع كاتب آخر، أو عاد إلى حومته، التي لم يبحْ لي باسمها بعد؟ هل سأضطرُّ للبحث عنه في حومات الجزائر العاصمة كلّها؟

تسرّبتُ على أطراف أصابعي خارج البيت، حتى لا أوقظَ شخوصي، خاصّة الفتاة «نعيمة المعقال»، هههههههه والله يا نعيمة المعقال! تحكي لك سبعين حكايةً دفعةً واحدةً، وتختم بقولها: «أعلم ألا أحد يفهمني في هذا العالم». أو أوقظَ أحد أفراد أسرتي، خاصّة علياء، هههههههه والله يا علياء! تطرح عليك خمسين سؤالًا دفعةً واحدةً، من غير أن تنتظر منك إجاباتٍ، فهي «تعلم» أنّك لا تعلم.

زَرْيَطَ البابُ الخارجيُّ، فتجمّدتُ في مكاني. وصلني هذيان نعيمة المعقال، فحرّرني من حالة الجمود. كلّ ما كتبته عنها استقيته من هذياناتها في نومها، أمّا صحوُها فلم يزوّدني إلا بالغموض. ووصلني صوتُ أم علياء تقول للصّغيرة مريم: «ارقدي.. مازال الحال»، فواصلتُ خروجي للبحث عن «ن».

مشهد غير متوقع

كانت علياء جالسةً في سلّم العمارة. تحمل ورقةً بين يديها، وتبكي بصوتٍ نصف مسموع، ثم صار مسموعًا تمامًا، بعد أن التفتتْ فرأتني. هل رأيتم كيف أنّ الطفل يُضاعف من صوت بكائه، حين يدخل عليه من يتوقّع أن يُنصفَه؟

قالت إنّها التحقت بمدرستها باكرًا، لتعرف نتائجَ اختبارات نهاية السّنة، وقد عادت متوّجة بشهادة تهنئة أنيقة، وما بكاؤُها إلا من فرحها. . هل ستضعها في إطارٍ يا أبي؟

فلاش باك

ما أن قرأتُ اسمي في قائمة ناجحي الباكالوريا عام 1996، وتأكدت من كونه اسمي بالاستعانة بأكثر من صديقٍ وصديقة، حتى قفلتُ طائرًا إلى «أولاد جحيش»، لأزف الخبر لأبي.

كان واقفًا ينتظر عند مدخل الحوش، وحين فهم من مشيتي وملامحي أنّي نجحت، جلس فوق حجرٍ مرتفع، وانخرط في بكاء منخفض. لقد برّر البكاء، حتى لا يقالَ إنّه كسر قاعدة أنّ الرّجل لا يبكي، بأنّه كان

سيُشعل السماءَ ببندقيته، لو لم يسلبْها الإرهابيون منه.

مشهد غير متوقع

سألتُ عينيَّ إن كان ما أراه في الغابة صحيحًا؟ الفتى «ن» مربوط إلى شجرة الصّنوبر، ووجهه مزروع ببقعٍ حمراءَ بفعل البعوض.

ـ ماذا صار؟

ـ حين استدرتَ أمس راجعًا إلى الحومة، وتركتنا خلفك، أشارت نعيمة المعقال عليهم بربطي هنا.

استدرت مباشرة راجعًا إلى البيت، لأخبرها بأنّي سأعدمها بإخراجها من الرّواية. ثمّ تذكرت أنّني لم أحرّرْ «ن»، ففعلت ذلك بسرعة الموت، وانخرطت راكضًا في الطريق الترابي.

تعوّد جيراني على أن يروني راكضًا، لكن ليس بلباس النّوم، فرشقوني بسؤال الحيرة: «لا باس يا شيخ؟».

صعدتُ سلّم العمارة كأنّني خفّاش/ اقتحمت البيت كأنّني ثور، فوقفت على مشهدٍ غير متوقّعٍ تمامًا: علياء تشدّ نجمة من شعرها، وتضربها ضرباتٍ قاسيات.

ـ ماذا صار؟

ـ اسألْ شهادةَ التهنئة عمّن مزّقتها.

ذهب أسود

ليس من عادة أمّ علياء أن تدشّن يومها بالصّراخ، فهي خرّيجة بيئةٍ ترى في ذلك علامةَ شؤم ومجلبةَ همّ. ثم إنّها ألفتْ أن تتحوّل إلى راعية صمت، حين تراني دخلت إلى مكتبتي لأكتب أو أقرأ، فما بالها زرعت البيت بالعياط هذا الصباح؟

قالت لي نعيمة المعقال: هل كان أبوك سيقبل هذا السّلوك من أمّك لو كان حيًّا؟

انتفض الفتى «ن» في وجهها: اجتهدتُ في أن أحتفظ لك بجرعة احترام، رغم كلّ شيء، لكنّني فقدتها الآن بتحريضك الرجلَ على ضرب زوجته.

فلاش باك

تبقى المرأة في «أولاد جحيش» نائيةً عن الضّرب، إلا إذا أطلّت على غريبٍ، أو ضُبطت تغنّي بصوت مرتفع، أو تقاعست عن وليمة الضّيف، أو تجرّأت على أحد رجال العائلة، أو تَمَكْيَجَتْ بلا عرس، أو أطلقت، على مسمع، لفظةَ فحش أو سبّةَ دين، أو تركت ضروع القطيع بلا حلب، أو أحدثت ضجيجًا في صباح الله.

حيرة ذهبية

. ماذا صار؟

. لا أثر لمجوهراتي.
. فتّشي جيّدًا.
. فعلت إلا في مكتبتك.
. ليس للذّهب أرجل تنقله من غرفةٍ إلى أخرى.
. لعلكَ حملتَه من غير أن تشعر، فأنت تفقد الوعي بالأشياء، حين تكون في حالة كتابة.
. هل سألت البنات؟

مشهد خارج البيت

من أحبّ ساعات رمضان إلى نفسي، خروجي عشيةً مع البنتين لنتبضّع، وقد عوّدتهما على شراء كلّ ما تطلبانه في هذه الخرجات، إلا إذا رأيت أنهما رغبتا في غرض بلا داع.

قلت لعلياء: غريب أنك لم تطلبي شيئًا.

. لدي طلب واحد فقط. ابقَ هنا مع نجمة حتى أعود.

أفلتتْ يدي/ انطلقتْ إلى الرّصيف المقابل/ لم تحترم عادة أن تنظر يمينًا وشمالًا قبل أن تمضي/ كَبَحَتْ سيارةٌ عجلاتِها عند رجليها/ اهتزّ قلبي حتى كدت أتقيّاه/ فتحتْ باب المجوهراتي، وأغلقتْه عليها.

مشهد داخل المطبخ

. أرى الفرن باردًا والمواعين مغسولةً ساعتين قبل الإفطار.
. حتى أرى جوعك ينطّ أمامي عند الأذان.
. وما ذنبي؟
. لم تشاركني فجيعة المجوهرات.
. ليس بيدي إلا أن أسمح لك بدخول المكتبة للتفتيش، بعد خروجي للرّكض.

شبهة الحلزونة

قلت لشخوص الرّواية: سنخرج اليوم إلى الغابة أيضًا، لكن للحديث لا للرّكض، فطاروا فرحًا ما عدا نعيمة المعقال.

. سأبقى

. لكنّنا سنجتمع تحت شجرة الصّنوبر، لنتفق على مخطّط للكتابة، في ما بقي من رمضان.

. سأبقى.

رسولة الظلام

تحلّقوا حولي تحت الصّنوبرة، وراحوا يتكالبون على من يكون أوّلَ المتحدّثين، وأدهشني أنّ الفتى «ن» فعل مثلهم أيضًا.

هَمَمْتُ بالحديث، لكنّني تجمّدت فجأةً: كيف لم أربط بين ضياع الذّهبات، ودخول علياء إلى المجوهراتي؟

تركتُ الحلقة/ أسلمت نفسي لريح الرّكض/ ظهرت لي المسافة بحرًا/ تجاهلت العيون الحائرة والأفواه السّائلة/ اقتحمت على المجوهراتي محلَّه/ نسيت التحيّة: واش جات بنتي تدير عندك؟

صبَّ عليّ نظراتٍ قصديريةً، ثمّ أجابني وهو يمسح نظّاراته:

. قالت إنّ جارة تسمّى نعيمة المعقال، أرسلتها لتسأل لها عن سعر الغرام من الذّهب.

مقود يتيم

دخلتُ مكتبتي مكشّرًا عن أنيابٍ ظاهرةٍ وأخرى تخفى، ومستعدًا لأن أضربَ أو أركلَ أو أدوسَ أو أنفّذَ إعدامًا في حقّ من تسوّل له نفسُه من شخوص الرّواية، إزعاجي أو التشويشَ علي. حرية السّرد لا تعني الفوضى، وخوفي من أن أكون روائيًا دكتاتورًا لا يعني أن أخضع خارج ما تسمح به شروط الكتابة. للكتابة شروط.. هل فهمتم؟

أقسم بربّ الكتابة إنّني سأعدم كلَّ من تسوّل له نفسُه إخراجَ كُراعه من القفّة سنتيمًا واحدًا، وإيّاكم أن تهدّدوني، مرةً أخرى، بالذّهاب إلى كاتب آخر، فلست من النّوع الذي يُمارس التهديدَ أو يقبله من غيره. من أراد أن يذهب إلى غيري، فأنا نفسي سأتطوّع بإحالته على من هو مؤهل لأن يكتبَه، فقد عشت مع الكتّاب أكثرَ من عيشي مع آل بوكبة.

قال الفتى «ن» من غير أن ينظر إلي: ماذا فعل الله بمجوهرات أمّ علياء؟

. اسمع يا «ن».. ليس نبيلًا أن تصفّيَ حسابَك مع نعيمة المعقال على حسابي، فأنا رجل ناضج وأعرف كيف ومتى أنتقم منها. أم أنّك تريد أن تجد نفسَك خارج الرّواية؟ لا تغرّنك محبّة بعض القرّاء لك، فتعتقد أنّني لا أستطيع أن أصفّيك.

عمَّ صمتٌ صارخ، فانفجرتُ ببكاء كنت بحاجةٍ إليه، حاجتي إلى عمّي رزقي الذي رحل اليوم من غير أن يودّع أحدًا.

كان سائقَ الحومة كلّها، وسائقَ عائلتي بالخصوص، منذ قرّرت أن أدخل بها إلى الجزائر العاصمة عام 2010، وكان آخر حديث دار بيننا:

. لماذا لم تشترِ سيارةً يا عبد الرزاق؟ ما دفعتَه لي خلال هذه السنوات،

كان كافيًا لأن تشتري سيارةً رباعية الدّفع.
. لا أصلح للسّياقة يا عمي رزقي.. أعرف حدودي.
اسمعوا.. عليكم أن تعرفوا حدودَكم، فتعلموا أنكم لستم الوحيدين في عالمي، بل عليكم أن تشكروني على أنّني تركت غيرَكم، واخترت أن أكتبكم أنتم. حياة عمّي رزقي هذا وحدها كافية لأن أكتب روايةً تنحني أمامها الرّوايات. هل هناك راوٍ أعمق من تاكسيور متقاعد من الجيش؟

بكاء السّلالم

خبطتُ البابَ في وجوههم، وخرجتُ ملتمسًا شجرة الصّنوبر. فإذا بي أسمع صوتين يبكيان تحت سلّم العمارة:
الصوت 1: كان يُعطينا الحلوى كلّما رآنا.
الصوت 2: كان يُسمعنا الموسيقى التي نشاء حين نركب معه.
الصوت 1: كان يدافع عنا في الحومة حين يكون أبونا غائبًا.
الصوت 2: البارحة فقط، سألني إن كانت جدّتي قد عجنت خبز الدّار، أخذتُ له خبزةً فأعطاني كيسًا من التّوت.
صوت 1: أين يذهب الإنسان حين يموت؟

بكاء المخطوط

كان الحديث عن عمّي رزقي، وكان الصّوتان الباكيان لعلياء ونجمة. لم أستطع أن أواجههما، فعدت إلى مكتبتي، لأواجهَ بَكْيَةً أخرى تذبح القلب:

. كان أبي تاكسيورًا متقاعدًا من الجيش، مثل رزقي هذا الذي تحدث عنه كاتبُنا، تزوّج أمّي بعد أن شاع مقتل زوجها الأوّل في الجبل، لكنّه ظهر فجأةً، حين كان عمري سبعةَ أشهر في بطنها، وجزَّ رأسَ أبي أمام عينيها، فوضعتني فورًا حتى اختلط دمُ نفاسها بدمه.
كان صوتَ نعيمة المعقال.

حلوى الملاك

أصبحتْ أمّي تشكو دوخةً، فأخرجتُ نقّالي أكلّم عمّي رزقي، كي يأخذنا إلى المشفى، مثل العادات. ثم تذكّرتُ أننا دفنّاه أمس، فاصبتُ بالدّوخة مثلها. لماذا تدّعي اللغة أنّها تستطيع أن تصف لحظةً، يحار فيها الواحدُ بين أن يترك أو يحذف رقمًا لعزيزٍ مات؟

تابوت العصفور

كان «ج» أقربَ الأصدقاء إلى نفسي في اللّيسيه، رغم أنّني كنت ضمن النظام الداخلي، ولم يكن كذلك. تَخَوْنَجْنا عامًا حتى بتنا نحلم بالمساهمة في إعادة الخلافة الإسلامية، ثمّ حلقنا لحيتينا، في ساعةٍ واحدةٍ، وصارحني بحبّه لنجوى، فصارحته بحبّي للياقوت. لقد اكتشفنا أنّ الواحد منّا كان يعشق ويُواعد مساء كلّ إثنين، من غير أن يُخبر الآخرَ، أي شريكَه في الحلم بإعادة الخلافة.

لاحظتْ نجوى أنّ أسلوب رسالاته إليها تغيّر تمامًا، فتحرَّتْ في الأمر، حتى عرفتْ أنّني أصبحتُ كاتبَه الحفي. كانت من النّوع الذّكي الذي يحسن إرسال الإشارات، فطلبت منّا أن نعيد قراءة قصّة «الشاعر» للمنفلوطي، حيث كان الفتى العاشق فيها، يُخاطب حبيبته بلسان الشاعر سيرانو، ولم تعد تتعامل مع «ج» إلا ازدراءً.

التحقتُ بجامعة سطيف عام 1996، والتحق بالخدمة الوطنية، بعدما خسر الباكالوريا، فكنت أكلّمه في الهاتف الثابت أحيانًا، وكان يراسلني في كلّ حين، ثمّ فجأةً عاد إلى بيته في تابوتٍ ملفوفٍ بالعلم الوطني، بعد أن لفّته قنبلة، فصيّرتْهُ جيماتٍ صغيرة.

هواجس العصفورة

ما أشبه عجزي عن وصف اللحظة التي هَمَمْتُ فيها يومها، بأن أحذف رقم هاتفه من أجندتي، بعجزي البارحة عن الرّد على أسئلة نجمة قبل أن تنام: بابا.. عمّي رزقي ياكل ويشرب عند ربي؟ يقدر يشوف ولادو؟ وسيّارتو علاش ما دّاهاش معاه وخلاها حابسة في الحومة؟ يلقى سيّارة عند ربي؟ بابا.. ربي ساكن فالسما، وعمي رزقي دفنوه فلّرض، كيفاش يتلاقاو؟

يقين الجرو

يا ربي الكبير، اشرحْ نفسَك بنفسك لهذه الصّغيرة، مثلما شرحتَها لي حين كنتُ طفلًا في «أولاد جحيش». حملتُ قصبة واعتليت جبل بوزيد علّني أستطيع أن ألمسَك، فتعثرتْ قدمي ووقعتُ في هاويةٍ كافرة، كان من المنطقي أن أموت، لكنّني لم أمت، لأنني أحسستُ فعلًا بيدك تتلقّاني، وتحط بي جروًا على جناح الأرض.. منذها لم أشترط أن أراك حتى أومن بك.

حيرة الشّبيه

توقعتُ أن ينطق جميعُ شخوص الرّواية، ما عدا جمال بودبزة، لذلك كانت دهشتي فخمةً حين نطق. ما كان أشبهَ فرحتي تلك، بفرحة أمٍّ تسمع وليدَها ينطلق للمرة الأولى. قال: كأنك تحدثتَ عنّي، إذ تحدّثت عن صديقك «ج» أيها الكاتب.

. واش بيك؟

. تحدثت معي بالدارجة؟

دمعة مؤجّلة

اشتعل الرّواق بعويل فصيح لنجمة وعلياء.

. ماذا صار؟

. وليد عمي رزقي عطانا الحلوى اللي كان عمّي رزقي مخبّيهالنا في سيّارتو.

جزية الذّئب

يدان لثلاث بنات، هو العنوان الذي يصلح لوصف حالتي مع علياء ونجمة ومريم، ساعة الخروج إلى الحومة يوميًا للتبضّع قبل الإفطار.

كانت مريم قاصرةً عن الخروج، في الرمضانين السّابقين، فكانت يداي كافيتين لأختيها، مع هوشةٍ تشتعل بينهما، بسبب رغبة كلّ واحدةٍ في أن تحظى باليد التي تحمل الرّيشة (3)، أمّا هذا العام، فقد صارت يدٌ لإحداهما بالتناوب، والأخرى حكرًا تظلّ لحمل مريم.

السّؤال الذي يطرح نفسه في هذا المقام: بأيّ يدٍ تُحمل القفّة؟ علمًا أنّ علياء ونجمة ترفضان أن تحملا شيئًا، لأنهما تكونان محتفيتين بالأغراض الصّغيرة التي تخصّهما وحدهما.

بالمناسبة: لماذا صارتا تشتريان كيسَ حلوى ثالثًا، من غير أن أرى له أثرًا في البيت؟

لاحظت قبل يومين، أن الصّغيرة مريم باتت ترفض الخروجَ معنا، وتلجأ إلى حضن جدّتها، كلّما رأتنا جهزنا أنفسنا لذلك. علمًا أنّها كانت تشعل البيت عويلًا، في الأيّام السّابقة، إذا رفضنا أن نصطحبها معنا.

فلاش باك

كنتُ طفلًا في «أولاد جحيش»، وكانت أحبَّ السّاعاتِ إلي، ساعة

يدعوني أبي، إلى إطلاق سراح كلب الصّيد، ومرافقته إلى الجبلِ، لنصطاد ما يُتاح من الحجلِ. رغم الرّعب الذي كان يستعمر مفاصلي، لحظةَ يُطلق البارود من بندقيته. لقد فشلتْ محاولاتُه جميعُها، في إقناعي بأن أتعلّم ذلك، فكان يستفزني، فيشبّهني بالأنثى الخوّافة.

صيفًا ما، زارنا عبد الرّحمن بن عمتي من مدينة سطيف، وصار رفيقًا لي في الخروج إلى الصّيد، ثم شريكًا لأبي في إطلاق البارود، فتحوّل من صديقٍ لدودٍ إلى عدوٍّ حميم. كان يُطلق رصاصته على الأرنب، وكان أبي يُطلق رصاصته علي: ويقتاش ترجع راجل كيفو؟

ليلةً ما، بيَّتُّ أن أضع حدًّا لخروجه معنا عشيةً، فأخبرت أبي صباحًا أنّني رأيت ولدَ العمّة، يركبُ، خلف الحوش، بنتَ العمّ. ولم ترَ العيونُ عبدَ الرحمن، في بيتنا، ستة أعوام متوالية.

سقوط القناع

سألتني جارتُنا أمُّ موح: لماذا لم تعد مريم تخرج معكم؟ قلت: إنّها كانت تبكي من عدم خروجها، فصارت تبكي من دعوتها إلى ذلك. قالت: هل أصارحك بأمرٍ، على أن تعطي الأمانَ لحفيدي رياض؟ قلت: يكفي أن تذكريه لأعرف أنّ له يدًا في الأمر. ماذا صار يا خالة؟

. سمعت علياء ونجمة، قبل يومين، تطلبان منه أن يُخوّفَ مريم، حين تُخرجانها إلى الحومة صباحًا، حتى تزهد في الخروج معك، على أن تجلبا له كيسَ حلوى معهما، وقد رأيته بعينيَّ اللتين سيأكلهما الدّود، يلبس قناع الذّئب ويهجم عليها، تحت سلّم العمارة، مثل خروفة خلّفها القطيع.

حدثتُ أمَّ علياء بالأمر، وطالبتها بأن تضاعف البوراك الليلة.

. وأخيرًا قبل بوكبة، هكذا تناديني، أن يستقبل ضيفًا في رمضان.

. سيكون معنا رياض على الإفطار، وسنأخذه معنا بعدها إلى البحر، حتى تتحرّر مريم من عقدة الخروج.

---

3 . ريشة فوق قصبة قصيرة، أحملها دومًا منذ الطفولة.

فخاخ شقيقة

يحدث أن أحرم نفسي من مشاهدة التلفزيون، والاستماع للإذاعة، وقراءة الجريدة، وزيارة قريبٍ أو حبيبٍ في بيته، أو استقباله في بيتي، واستعمال الهاتف وفيسبوك، لأخلو بنفسي في مكتبتي مع شخوص روايتي.

أنسى ما وراء الباب، وأفخّخ نفسي بموسيقى حزينةٍ، عادةً ما تكون كرديةً، وأباشر جنونًا لذيذًا مع «عبادي». فنرقص معًا ونغني ونبكي ونضحك ونتهاوش ونتنابز بالألقاب. ثمّ نتصالح ونتجاذب أحاديث الأطراف.

وقد صار من العادة، أن تخرجني نجمة أو علياء من خلوتي، بالطرق على الباب ودعوتي للتدخل حالًا: بابا.. ضربتني/ بابا.. ما خلتنيش نتفرّج/ بابا.. ضربتلي بوبيتي/ بابا.. كلاتلي حقي/ بابا.. رماتلي صبّاطي/ بابا.. عايرتني/ بابا.. ما خلاتنيش نلعب بالطابلات/ بابا.. بابا.. بابا.

أقع مثل ريشتي بين ريحين، ريحٍ تقول لي: أغلق أذنيك، فأنت الآن في لحظةٍ مهرّبةٍ للكتابة، وملزم بأن تعتني بشخوص روايتك. وريح تقول: واش بيه جدّك يا بوكبة؟ بناتك في حالة حرب، وأنت أولى النّاس بأن تفكّك ما بينهما من فخاخ. كيف كنتَ ستشعر لو كنت عاقرًا؟

استنجدتُ أمسِ بسامي بطل المسلسل الكارتوني الياباني «أنا وأخي» المقتبس عن سلسلة «مانغا» للكاتبة ماريموراغاوا عام 1996، علّه يزرع بينهما سنبلة أو سنبلتين من المحبّة، فأطلعتهما على قصّته مع أخيه الصّغير وسيم.

روى لهما سامي كيف أنّ أمّه ماتت، وتركت له أبًا مشغولًا وأخًا صغيرًا، فصار يُسحّر له وقتَه كلَّه: يُطعمه/ يسقيه/ يُلاعبه/ يُنيمه/ يغسل له/ يُفسِّحه/ يحكي له قصصًا/ يحميه/ يُغطّيه/ يمسح دموعَه ولعابَه/ يتنازل له عن أكله ولُعبه، ويحرس مهدَه حتى يصحو.

فعلت التجربة فعلتها طيلة المساء، إذ لم يحدث أن تشاجرتا، أو طرقتا علي باب الخلوة. ولم أسجّلْ سوى أنّني فقدت ألف دينار، كنت قد تركتها في الصّالون، فتفرغتُ لنعيمة المعقال والفتى «ن»، وعقدت بينهما اتفاقًا على أن يتركا ما بينهما من مشاحناتٍ، ويُركّزا على سرد حياتيهما، قبل أن يخلص رمضان، فقد لا أجد نفحةً للكتابة بعده.

كنت قد دعوت السّيد رياض، سبع سنوات، لتناول الإفطار معنا، ومرافقتنا إلى البحر في السّهرة، حتى تتخلّص الصّغيرة مريم، عشرون شهرًا، من رفض الخروج إلى الحومة، بعد أن أرعبها بقناع الذّئب، فجاء بلا قناع وقدّم هدية لأمّ علياء، تحبّها ولا يشربها في البيت سواها: زجاجة كوكاكولا لايت.

رُفع الأذانُ إلى الآذانِ، فرُفعتِ الملاعق إلى الأفواه، ثم فجأةً رفعتْ أمُّ علياء عيطةً لم تأكل أو تشربْ بعدها.

نسيتُ أن عمّي رزقي التاكسيور قد مات، فهممت بأن أطلبه ليأخذنا إلى المستشفى/ ذكّرتني أمّي بموته، فطلبت جارنا أبا شيماء في الطابق الثاني/ قيل لي إنه أفطر عند شقيقته/ عدت إلى البيت، فوجدت المخلوقة قد ارتاحت بأن تقيّأت، ولم أجد أثرًا لعلياء ونجمة وضيفهما العزيز.

التمستهم في سلّم العمارة، فوجدتهم يتهامسون: إيّاكما أن تعترفا بأنّكما طلبتما منّي أن أحقن زجاجة الكوكا بالجافيل/ إيّاك أن تعترف بأنّك قبضت منّا ألف دينار.

ذهبت الجدّة لتنام، وغرقت أم علياء في مسلسلها التّركي، فدعوت البنتين إلى المكتبة:

. لماذا طلبتما من رياض أن يضع الجافيل في زجاجة الكوكا؟

. أعجبنا اعتناء سامي بأخيه وسيم، بعد أن ماتت أمّه، فقلنا نفعل ذلك مع أختنا مريم، بعد أن تموت أمُّنا.

الفرّوج المقدّس

. بابا.. لماذا تصومون في رمضان؟
. حتى نحسّ بجوع الآخرين في غيره.
. لماذا لا يأكلون حين يداهمهم الجوع؟
. لأنّهم فقراء.
. هل هناك فقراء في حومتنا؟
. أمّ كريمو مثلًا.

فلاش باك

كان يوم العودة السّنوية لجدّنا الميلود، من شغله في فرنسا، أحبَّ الأيّام إلينا، نحن أحفادَه. فيه نتلقى سراويلَ جديدةً، نحن المحشورين في السّراويل المرقّعة، وأحذيةً جلديةً، وقد أكلتْ أرجلَنا الصّبابيطُ المطّاطية، ونأكل فواكهَ وحلوياتٍ، لم نسمع بها أصلًا، في قريةٍ لا يسمع بها إلا الله.

صيفًا ما، جاء الجدّ العزيز وجابَ معه الألبسةَ والأحذيةَ العزيزةَ، فبدأ بي كالعادة، لأنني وحيدُ ولدِه البكر، فلبستُ ما أعطاني ساعةً، ثم لمّتهم أمّي في كيسٍ ووضعتهم في صندوقها الخشبي، تحسّبًا لعرس وشيك.

صباحًا ما، دعانا الجدّ إلى دار الضّيوف المطلّ بابُها على القبلة، وأخبرنا أنّه قرّر أن يقيمَ عرسًا لختان ولد عمّنا أحمد: أريدكم جميعًا بالألبسة الجديدة.

بعد يومين، قصد حوشَنا متسوّلٌ يتبعه صبيّ تظهر ركبتاه وصدرُه وحافراه من فقرٍ، فتسلّلتُ إلى صندوق أمّي وأخرجت الكيس العزيز/ وضعته تحت إبطي، وغافلتُ عينيها إلى نهاية الممرّ الذي يسلكه المتسوّلان. مكثتُ خلف صخرة حتى أتيا، خرجت لهما، وأعطيت الكيس للصّبي.

لم أكن أعلم حينها أن نظراته إلي، وهو يُغادر مكسوًّا بالسّرور، سترافقني إلى يوم الكتابة هذا، مثلما لم أكن أعلم أنّني على موعدٍ مع ضربٍ مبرّحٍ على يد الجدّ، بسبب أنّني خالفتُ أمرَه، وظهرت بلباسي وحذائي المُوغلين في القدامة.

تحقيق الملكة

أمسِ، كنت في خلوتي الرّوائية، مع الفتى «ن»، الذي ذاب في بوحٍ فاض على اللّغة، وإذا بأمّ علياء تدعوني إلى اجتماعٍ عاجلٍ في غرفة الملكة الأم.

. أين الفرّوج؟
. واش من فرّوج مّا؟
. ذاك الذي أحضرتُه معي من القرية، لنحييَ به نصفية سيّدنا رمضان؟
. وْراسَك ما شفتو.
. لا أعتقد أنّ ديكًا منزوع الرّيش والرّأس والأمعاء، يستطيع أن يغادر الثلاجة، ويتخذَ له في البريّة سبيلًا.
. مّا.. خلّينا من المشاكل.. راني نكتب وراسي راهو كالطبل.
. كنتَ قادرًا على أن تشتري دجاجةً، وتتصدّق بها، لا أن تتصدّق بفرّوج النّصفية.

فَخِذٌ مرّ

أنهت أمُّ علياء مهمتَها في المطبخ، فباشرتُ مهمّتي بنقل المواعين وما فيها، إلى طاولة الإفطار في الصّالون، وإذا بجرس البيت يُعلن عن كائنٍ ما. كانت أمّ كريمو يسبقها صحنُ مرقٍ يتوسّطه فخذُ دجاجٍ بلدي:

ـ أخبرْ ابنتيك أنّني لم أشأ أن آكلَ الفرّوجَ الذي جلبتاه لي وحدي.

السلّة الصّينية

لا أحتملُ أن يدخلَ أحدٌ مكتبتي، حين أكون في حالةِ كتابةٍ خاثرة، لا أثناء وجودي فيها ولا بعد خروجي منها. وأسارع إلى تنظيفها وتعطيرها، حتى لا تتذرّعَ أمُّ علياء بالتنظيف، فتدخلها، وتشوّش على تداخلي مع شخوصي.

نسيتُ الباب مفتوحًا، أثناء خروجي إلى الشّرفة، لأتفقد البنات يلعبن في الحومة، فوجدت أم علياء قد جلبت ترسانة التنظيف واستعمرت المكتبة.

لم أشأ أن أعلّق على ما فعلته من غير إذني، رغم امتعاضي الذي لم يتفوّق عليه إلا امتعاضُ شخوص الرّواية، خاصّة نعيمة المعقال، لكنني اضطررتُ إلى أن أسألَها، بعد أن لاحظتُ أنّها، على غير عادتها، تتلصّص على زوايا لم تكن تركّز عليها، مثل خزانة الكتب وأسفل السّرير، بما يوحي أنّها تفتّش عن شيءٍ أو عن بقاياه.

. عن أيِّ شيءٍ تبحثين يا مخلوقة؟
. وجدتُ صرصورًا في المطبخ، فخشيت أن تكون مكتبتُك مصدرَه.
. أقسم إنك تتجنّبين قول الحقيقة. اعترفي.. فأنا شريكك.
. لو كنتَ شريكي، لما أكلتَ رمضانَ خفيةً.
. يا إلهي.
. اعترفْ.. وسأجلبُ لك الأكلَ بنفسي.
. لستُ مضطرًا لأن أنكرَ لك ذلك أو أثبتَه.
. تعلم أنني أتعمّد، منذ حلول رمضان، تركَ كميةٍ من لحمٍ وجبنٍ، في

الثلاجة، حتى تأكل البنات في النّهار، غير أنّني لا أجد لها أثرًا. مع علمي أنهن لم يأكلنها، أين راحت من غير معدتك؟

فلاش باك

كان عمري اثني عشر عامًا، حين ضبط أبي فمي يَعُبُّ ماءَ القربة مباشرةً من فمها، في عزّ سيدنا رمضان، فتجمّد الماءُ في حلقي وأمعائي، لعلمي المسبقِ بأنّ العقاب سيكون ساخنًا.

قال إنّه سيترك عقاب الله لله، لكنّه لن يتركَ عقابَه هو، وخيّرني بين أن أشربَ القربةَ كلَّها، أو أبيتَ خارج الحوش مع الذئاب.

كنت أخاف عواء الذيب، وأنا محمي في الفراش، فكيف أن أواجهه وجهًا ونابًا؟ فاخترتُ شربَ القربةِ عقابًا.

امتلأ بطني بالماء، حتى انقطع نفسي، ولولا جدتي مريم التي فعلت ما تفعل عجائزُ «أولاد جحيش»، لإنقاذ المعاقَبِ في مثل هذه المواقف، لصرتُ قربةً ثانيةً: كشفتْ عن عورتها أمامه، فطار إلى خارج الحوش، ولم يعد إلا بعد إفطارين عند عمّتي.

مرحبًا بالصّين

ليس من عادتي أن أرى السّيد «شي»، بعيدًا عن بوّابة الورشة الصّينية المكلفة بإنجاز الحيّ الجديد، فما باله زار اليوم حومتنا؟

لم تدم حيرتي طويلًا، بخروج جاري عزيز الذي يلقّب بعزيزوفيتش، لأنّه بكى يوم غادر المدرّب البوسني وحيد حليلوزيتش، حاملًا سلّةً صدرت منها مواءاتٌ متقاطعة، كشفتُ عنها الغطاءَ، فوجدتُ ستة قطط سمان.

أعطى عزيزوفيتش السّلّة ل «شي»، وقبض منه مبلغًا سمينًا، ثم التفت إليّ بكلّ براءة:

. أوصلْ هذه الإكرامية لعلياء ونجمة، نظير اللّحم والجبن، اللذين كانتا تحضرانه يوميًا للقطط.

ليلة القدر

من العادات التي تزعجني بها علياء ونجمة، أنّهما تطيران إلى البابِ الخارجيّ كلّما سمعتا الجرس. وبات انزعاجي ثلاثيَّ الأبعاد، بانضمام الصّغيرة مريم إليهما، في الشّهور الثّلاثة الأخيرة.

فعلتا ذلك أمس، ثم أغلقتا الباب بقوةٍ على غير العادة، وأمطرتا على باب مكتبتي بغزارة: بابا.. بابا.. النّجدة.. النّجدة.

قال لي بعضُ شخوص الرّواية: عوِّدْهما على اللّجوء إلى جدّتهما أو أمّهما أو نفسيهما، بحسب الحالة، وإلا فإنّك لن تجني من خلوتك حرفًا.

. ماذا صار؟
. تعال شُفْ بنفسك.

مطوية الرّماد

أدهشني أنّني وجدت خلف الباب، ثلاثة شبابٍ سلفيين بوجوهٍ مكسوّةٍ وسيقانٍ عاريةٍ، فتأخرتُ في ردِّ التحية، ثمّ في استلام مطويةٍ، قالوا إنّهم خرجوا في سبيل الله، لينبّهوا العائلاتِ إلى بدعة الاحتفال بليلة القدر.

. نحن بحاجةٍ إلى مطوياتٍ تحرّضنا عل ترك التّبذير، وإخراج القمامة في وقتها، وعدم إزعاج النّائمين في ساعات النّوم، والحفاظ على مواعيد الدوام.

. هذه مهمّة الحكومة.

لم أتأخرْ في إغلاق الباب، وفتح حديثٍ مع أمّي، التي تعتقد أنّ ليلة القدر امرأة سماوية، ما أدركتْ أحدًا في الخلاء، إلا حققت رغباتِه كلَّها.

—

فلاش باك

—

دعانا جدّنا الميلود، إلى أن نحيطَ به، وهو يذبح تيسًا احتفالًا بليلة القدر. وصادف أن زارنا العطّار عمر أوعاشور، من منطقة زواوة، على بغلته التي تحمل ما تشتهيه النّساءُ، من مرايا صغيرةٍ وعطرٍ وكحلٍ وسواكٍ وزيتٍ للشعر ومناديلَ للرّؤوس، فأقسم عليه جدّي بالمبيت.

عسعس اللّيلُ، فشجّعتني أمّي على أن أتركَ خوفي وأقتحمَ الخلاءَ، علّني أدرك ليلة القدر، فأطلبَ منها أن تجعلني عالماً تهتدي به النجوم.

خرجتُ مدفوعًا بحرارة الطّموح، ثمّ فقدتها، حين اعتليتُ صخرةً خلف الحوش، فاعتلاني رعبٌ منعني من النّزول والعودة إلى البيت. كان الظلامُ والعواءُ سريرين كبيرين ينام عليهما خوفُ الأرواح.

عشتُ تجربةَ أن تخرجَ روحي من جسدي، حين سمعت نحنحةً تحت الصّخرة، ثم استعدتُ روحي فجأةً، ظنًّا منّي أنّها نحنحة ليلة القدر، فرحتُ أذوب في الدّعاء.

. إيه.. ربي يسترك ويهنّيك يا وليدي.

ظهر أنها نحنحة عمر أوعاشور، وقد سبقني إلى الصّخرة، ليفرغ كرشَه من لحم التّيس.

شرفة النّور

من عادتي أن أوقظ علياء ونجمة وقت السّحور، فأنا لا أستصيغ البيتَ خاويًا من حديثهما.

التمستهما في سريريهما/ لم أجدهما/ دخلت غرفة جدّتهما/ لم أجدهما/ في الدّوش والمرحاض، لم أجدهما/ تفقدتُ البابَ الخارجيَّ، فقد تكونان خرجتا معتقدتين طلوعَ النّهار، وجدته محكمَ الإقفال، وكان بابُ الشّرفة مقفلًا مثله، فلم تخطرْ لي الشّرفة على البال. وين راحو يا ربي؟

في الوقت الذي كادت أرواحُنا أن تخرج فيه خوفًا عليهما، وصلني صوتان خفيفان من الشّرفة: كانت علياء واضعةً منديلًا على رأسها، ورافعةً يديها إلى القبلة جهة الغرب، خلفها نجمة تحمل مطوية الشباب السّلفيين.

. واش راكم تديرو؟
. نستنّاو في ليلة القدر.

أنا قاتل

بقرارٍ ملكيٍّ سامٍ، أصدرته الملكة الأمّ، قبل خمس سنوات، أي ثلاث سنوات بعد ولادة علياء، وشهرًا بعد ولادة نجمة، أصبح مسلسل «نسيبتي العزيزة»، الذي تبثّه قناة «نسمة» التّونسية، مسلسلَ الأسرة في السّاعة التي تلي الإفطار، فترسّخ في الأذهان والوجدان، حتى أنّ كلَّ واحدٍ منّا، بات يحمل اسمَ واحدٍ من شخوصه.

أمّي: فطّوم أم المنجي
أمّ علياء: خميسة
علياء: رزيقة
نجمة: حيّوتة
مريم: جمعة
أنا: ببّوشة

ولأنّ نسخة هذا العام، أدخلت «رفيقة» زوجةً للمنجي، فقد أطلقتْ علياءُ اسمَها على أحبِّ دماها إليها.

لم يحدثْ أن بلغ التشنّجُ مع شخوص روايتي ذروتَه، مثلما بلغ اليوم، حتى أنّني رميت نعيمة المعقال بالكرسي، فحدث أن أصبتُ صحنًا طينيًا أهدته لي جدّتي الأمازيغية وردية يوم ختاني منتصف الثمانينيات.

تزامنت الحادثة مع صراخ علياء، من خلف الباب، تقول إنّ نجمة ضربت دميتها رفيقة.

خرجتُ هائجًا مثل شتيمةٍ أملاها غضبُ الصّيام، فحملت الدّمية وخنقتها حتى خرجت روحُها. كنت، في تلك اللحظة أخنق في الحقيقة نعيمة المعقال.

طارت علياء من بين يدي، ولم يبقَ منها إلا صوتُ صندالتها على سلّم العمارة.

انتبهتُ إلى حالتي، فخرجتُ إلى الشّرفة أشمّ الهواء، وألقي نظرةً على دبيب الحومة عصرًا، فرأيت علياء في حديث ساخن مع جارنا نذير عون الشّرطة في مدينة بومرداس.

ورطة كونان

قرّرت أن أقاطع المكتبة، فدخلت الصّالون وغرقت في سلسلة «سيلفي» على الأم. بي. سي، وإذا بالجرس يرنّ. كان جاري الشّرطي نذير، وكان اجتهاده في أن يتحدّث إليّ واضحًا:

. شوف جاري العزيز.. في الحقيقة حنا خاوة، وحاب نقولّك باللي أنا مستعد نرافقك باش تبلّغْ بنفسك، خير ما يحسبوها عليك.

. على واش راك تحكي؟
. علاش قتلت رفيقة؟

الفنّانة التشكيلية

. بابا.. ما سرُّ سواد هذه اللّوحة؟
. لأنها مرسومة بالفحم.
. هل يُمكننا أن نرسم بالفحم؟
. كثير من الرّسامين يستعملونه.
. كيف يُمكننا أن نحصل على الفحم؟
. إمّا أن نحرق الحطب، وإمّا أن نشتريه جاهزًا، من عند الحدّاد أو الشوّاي.

كان هذا حوارًا بيني وبين علياء، بخصوص اللوحة التي رسمها التشكيلي منير غوري، ترجمةً لكتابي «وحم أعلى المجاز»، وقمت بتعليقها في صالون البيت.

—

فلاش باك

—

كنت مقيمًا في الحيّ الجامعي بجامعة سطيف، أواخر التسعينيات، وكان شريكي في الغرفة فتىً سلفيًا، عزّ عليه أن أستمع إلى الموسيقى، وأعلّق صورًا لذوات الأرواح، وأنزل إلى صديقاتٍ يناديني من الطريق الذي تطلّ عليه نافذتي.

في البداية، استعمل معي اللينَ، فكان يُفخّخني بالنّصيحة بكرةً وأصيلًا. ثم اخشوْشنَ فبات يوقف المسجلّة في حضوري، ويُتلفُ الأشرطة في غيابي، وحين يراني شغّلتها من جديدٍ ينخرط في قيام الليل، لعلمه أنّني أضع حدًّا لها من تلقاء نفسي، احترامًا للقُران العظيم.

كان من عادتي شبه اليومية، أن أقصد الغابة التي أعلى الجامعة، فأكتب أو أقرأ، ثم أشاهد الغروبَ، وأعود إلى غرفتي.

مرةً.. صادفتُ في الغابة كتلةً فحميةً، فدعوت صديقًا موهوبًا في الفن التشكيلي، كان على علمٍ بخلافي مع شريكي السّلفي، وطلبتُ منه أن ينحت منها صنمًا.

وضعتُ المنحوتة السّوداء فوق الطاولة، وما أن سمعت خشخشة المفتاح في قفل الباب، حتى شرعتُ في الهمهمة، بما يوحي أنّني أصلّي للصّنم.

. ماذا تفعل؟
. تركتُ دينكم. وعدت إلى الديانة الأصلية لأجدادي العرب.

لمَّ أغراضًا له ونسي أخرى، وغادر الغرفة فورًا، وهو يستغفر الله العظيم، من الشّرك العظيم، فأصبحت سيّدًا على نومي وصحوي وجِدّي ولهوي.

جدار أسود

أعجبتني قيلولة الجميع في البيت، فبسطتُ الحديثَ مع شخوص الرّواية في المكتبة، وإذا بالجرس يرنّ والبابِ يُفتح والصّراخِ يعلو. كانت جارتنا أم علي.

. ماذا صار يا خالة؟
. ابنتك علياء وابني علي، جلبا فحمًا من عند الشوّاي رضوان، ورسما به فوق جدار الصّالون، فشوّهاه بشكل سيجعل عشيّتي سوداءَ مع زوجي.

شمس الكفيف

أصرّت علياء ونجمة على مرافقتي، إلى الإفطار الخيريّ، الذي أقامته «جمعية الوفاء بالعهد»، لنزلاء معهد التكوين المهني الخاص بذوي الاحتياجات الخاصة. وحدث أن انسجمتا مع وهيبة الكفيفة، وأعجبتا بها إعجابًا عميقًا.

التحقت وهيبة سليلة مدينة تيزي وزّو بالمعهد، لتتعلّم الإعلام الآلي، بعد أن حصلت على شهادة ماجستير في العلوم القانونية، وهي متحدّثة جيّدة وتتقن فن التنشيط.

فلاش باك

زارتنا إحدى القريبات في «أولاد جحيش»، وظهر أنّها تتوحّم على التفّاح، فباعت جدّتي مريم دجاجةً لها، وأعطتني سعرَها لأشتري لها تفاحًا من بستان سي مخلوف.

كان البستان مسيَّجًا بأشجار العرعار، ومحروسًا من طرف الفتى الكفيف سي محفوظ، الذي كان مبدعًا في التعرّف على النّاس من خلال أصواتهم، مهما طالت المدّة، وفي المشي مسافاتٍ طويلةً من غير عصا أو دليل.

سابقًا، كنت قد استعرت مئتي دينار من زميل لي، لشراء كتاب من زميل آخر، فحدث أن التقيته في طريقي إلى البستان، وافتكّ منّي المبلغَ، رغم أنّني شرحتُ له السّياق، فتناهَبَتْني حيرتان: هل أعود إلى البيت، من

غير تفّاحٍ، فتبيعني الجدّة إلى الجدّ، الذي عاد متقاعدًا من فرنسا، مثلما باعت دجاجتها لجارتها، فيكون مصيرُنا مشتركًا في النتف، أم أصارح سي محفوظ بالأمر، فقد يشفق علي، ويعطيني التفّاح مجانًا أو تأجيلًا؟

وقفتُ عند سياج العرعار، وناديت عليه حتى بحّ الحلقُ، فلم يظهرْ له وجهٌ، أو يطلعْ له صوت. اقتحمت السّياج مفخخًا بإحساسَيْ الخوف والخزي، وشرعت في قطف التفّاحة تلو أختها، وإذا بيدٍ غليظةٍ تقبض على قفاي. كانت يدَ سي المحفوظ.

حرصتُ على عدم سقوط التفّاحات الثمينات، وأنا أفرّ، أكثرَ من حرصي على عدم سقوطي. ثم فجأةً تسمّرتُ في مكاني، حين سمعت سي المحفوظ يناديني باسمي. كيف عرفني وهو لا يشوف وأنا ما نطقت؟

بعد عشرين عامًا، اعترف لي بأنّه كان، يومها، نائمًا في ظلّ شجرة، وقد رآني في المنام أفعلُ ما فعلت.

تمثّلات فراشة

حملني النعاس اليوم، على أن أغفو من غير أن أضع القلم، فرأيت فيما يرى النّائمُ أنّ نجمة تمدّ إلي يدَها وهي تبكي، فقمت فزعًا. نسيت أن أغلق باب المكتبة خلفي كالعادة، فقد يتسرّب بعضُ شخوص الرّواية/ تفقدتها في البيت/ قيل لي إنّها خرجت مع علياء/ نزلتُ من الطابق الخامس إلى الطابق الأرضي في رمشتين، فوجدت جمعًا من الأطفال يُحيطون بها، وهي تتوجّع من ركبتها.

. علياء.. ماذا صار؟

. أردنا أن نجرّب كيف تمشي طاطا وهيبة من غير عينين، فأغمضنا أعيننا ومشينا، وها أنت ترى النّتيجة.

اغتيال رمضان

في مثل هذا اليوم تمامًا، من العام الفائت، زرتُ قريتي «أولاد جحيش»، فرأيتُ جدتي مريم ربّي يرحمها، وعدتُ، إلى العاصمة، محمّلًا بخروفٍ ودقيقِ قمحٍ وفريكٍ وسمنٍ ولبنٍ ودجاجٍ بلدي. أشارت نجمة إلى الأرزاق: باباً.. هذا هو رمضان؟

لم أشأ أن أفخّخها بما يتجاوز سنَّها، فقلت: نعم.. هذا هو رمضان. واستقرّ في ذهنها أنّ رمضانَ هو ما نأكله فيه.

فلاش باك

كان أبي يذبح خروفًا، فاتحة كلّ رمضان، وكان يحرص، رغم نفوري، على أن أحضر الطقسَ ذبحًا ونسفًا وسلخًا وتقطيعًا، قائلًا إنّني أصبحتُ رجُلَه الذي يعتمد عليه، والرّجلُ ملزم باحترام رمضان. فاستقرّ في ذهني أنّ رمضانَ هو الخروف المذبوح.

استقرّ لحمُ الخروف في كرشي ليلةً، بعد أن مكث أيامًا من غير تبريد، فلم تكن القرية تعرف الكهرباءَ إلا حلمًا، وفعل فعلته في أمعائي. فتهيّأ لي الموتُ كبشًا ذا قرنين يهمّ بأن ينطحني، غارقًا في العرق وصدر أمّي، ثم طفوتُ فوق الإسهال والحمّى ذات الهذيان. وهو ما جعلني، في العام القادم، أبيّتُ مكيدةً للخروف، أقصد رمضان.

أعلن الشّيخ عبد الرّحمن الجيلالي، في المذياع، ثبوتَ الهلالِ. فطفح

وجهُ أبي بِشْرًا، وطفح وجهي خوفًا. تسللتُ إلى الزّريبة، التي يتواجد فيها الخروف المدلّل، فنزعت الحبلَ من كُراعه، ووضعته في عنقه. أصبح الملك لله، وأصبح الخروفُ/ رمضانُ جثةً ينهبُها الذباب.

محامية السّماء

لاتزال أمّي مصرّةً على أن نحتفلَ بنصفية رمضان، وهي الليلة الوحيدة التي نتخلّى فيها عن أطباقه المعروفة كلِّها، ونكتفي بالشخشوخة مع ديك بلدي، ولأنّ علياء ونجمة كانتا قد أهدتا الفرّوجَ البلديَّ، لجارتنا أم كريمو، فقد عوّضناه بدجاجة الجزّار.

لم تستوعبْ نجمة أن نتخلى عن الشّوربة والبوراك وطاجين الزيتون واللحم الحلو، فهي تمثّل رمضانَ في ذهنها، فأبدتْ اعتراضًا صارخًا على الاكتفاء بالشّخشوخة.

. ما تحشموش تقتلو رمضان؟

كان منظر الشّخشوخة ثريًا بالألوان، وكان لعابُ ثلاثتنا، أمّي وأمّ علياء وأنا، متأهبًا قبيل الأذان. تداعت الملاعقُ الثلاثُ إلى صحن الطين، ثم تداعت إلى الأفواه، فطلعت ثلاثُ وَخْوَخاتٍ دفعةً واحدةً، أخ.. أخ..أخ، أعقبتها قهقهتان للبنتين تجاوزتا حدودَ البراءة وشرفة البيت.

كانت الشخشوخة مالحةً حدّ المرارة، بما جعلنا نكتفي بالماء وبقايا خبز البارحة.

اختطاف انتقامي

ما أن تشرقَ شمسُ الله، حتى يقتحمَ الحومةَ أطفالٌ على حميرهم، ويُغرقوها بالصراخ: ياو الخبز اليابس/ ياو الخبز اليابس. وهو الوقت الذي أكون فيه باسطًا قلمي في المكتبة، مستمتعًا بنوم البنات، وصحوِ شخوصِ الرّواية.

أزعجني صراخُ هؤلاء الصّغار القادمين من خيامٍ منصوبةٍ خلف الحومة، فأشرفتُ عليهم من الطابق الخامس، ورحت أصرخ فيهم: النّاس نيام. فاكتفوا بأخذ الأكياس، التي عند أبواب العمارات في صمت. أشار أحدُهم متوعّدًا: ستصبح، يومًا، مثلنا أيّها المتعجرف.

فلاش باك

يُحرّم أولاد جحيش أكلَ الحمامة، لأنها أنقذت الرسول عليه السلام في غار ثور، ويتوعّدون من يأكل لحمَها بجريان الكرش، وهذا الذي حدث لي يومًا.

جرتْ كرشي، فجريتُ إلى وادي الدّفلى. نزعتُ ثيابي وغسلتها في البركة الحجرية، ورحتُ عاريًا أنتظر أن تنشف. في تلك اللحظة، جاء جدّي ليسقيَ فرسَه، فرآني كما ولدتني أمّي، وفي ذلك مدعاة لأن يُشغِّلَ عصاه، فاتخذتُ لي بين أشجار الدّفلى مهربًا.

عدتُ فوجدته قد أخذ الثيابَ معه، فما كان منّي إلا انتظارُ الظلام

حتى يسترَني، منهوبًا بأمنيتين ينهبهما التناقض: أن يأتيَ الليلُ لأعودَ إلى البيت، وألا يأتيَ حتى لا يأتي الذيب.

تسلّلتُ إلى زريبة الغنم، ولم أستجبْ للنداءات التي كان الجميع يطلقونها في الخلاء، حاملين قناديلَ مضيئةً: رزيق.. رزيق.. رزيق.

عضّني الجوع، فكنت آكل من الخبز اليابس الذي كان جدي يشتريه لنعاجه من مدينة المهير، وأبلّله بالحليب من ضرع العنزة مباشرة.

اختفاء الفراشة

لم يحدثْ أن كتبتُ عشرَ صفحاتٍ في اليوم الواحد، منذ شرعت في كتابة هذه الرواية، وقد فعلتُ اليوم، فشرعتُ أقول لشخوصها: أنا سعيد بكم يا أعزّائي.. هكذا أريدكم عمليين ومثمرين. ولم يحدثْ أن دقّتْ أمي عليَّ بابَ المكتبة بعصاها، فعلمتُ أن مصيبةً قد حلّت.

. ماذا صار؟
. بنتاك لا يظهرُ لهما أثرٌ في الحومة منذ ساعتين.

تباطأتُ في البحث عنهما بدايةً، لاعتقادي أنّهما عند إحداهما، ثم تسارع البحثُ والنبضُ، حين أنكر الجميعُ رؤيتَهما. وين راحوا يا ربّي؟

أطلّتْ أمُّ علياء من الشّرفة باكيةً، ونبّهتني إلى أنّهما قد تكونان ذهبتا إلى الغابة التي خلف الحومة، حيث تعودتُ على أن أصحبَهما أحيانًا، حين أخرج للرّكض. فركض الخوفُ في أوصالي وصوتي، وقادني إلى أوصال الغابة.

صادفتُ الفتى الذي توعّدني على حماره، فبادرني بالسّؤال:

. تبحث عن علياء ونجمة؟
. أين هما؟
. لماذا أصبحتَ طيبًا معي فجأةً؟
. أين هما يرحم والديك؟
. ليس قبل أن تجلبَ لي كيسين من الخبز اليابس.
. أعطيك نقودًا، أو أشتري لك كيسين من الخبز الطازج.
. لن أرضى عن الخبز اليابس بديلًا.

حرج يابس

لم أجدْ مهربًا من العودة إلى الحومة، والطوافِ على بيوتها لطلب الخبز اليابس، متحمّلًا استغراباتِ الجارات والجيران. أخذتُ الكيسين إلى الفتى العنيد، فطلب منّي أن أركبَ على ظهر الحمار، وأصيحَ بأعلى صوتي، طوال الطريق إلى الخيام: ياو الخبز اليابس/ ياو الخبز اليابس.

وصلنا. فوجدتُ علياء ونجمة تجريان بين الخراف والدجاج والأرانب والكلاب والدّيكة الرّومية، وتصرّفتا كأنّهما لم تفعلا شيئًا غريبًا، مكتفيتين بالقول: بابا.. بابا.. صوّرنا باش تحطنا في الفايسبوك.

الدّكتاتورة

كانت الصّغيرة مريم أكثرَنا إيثارًا، لا تأكلُ اللقمة حتى نذوقَ منها جميعًا، بل إنّها كانت تفرض علينا أن نشاركَها الرَّضّاعةَ نفسَها، ومن أبى فسيُضرب بها على الرّاس. ثمّ انقلبت فجأةً، فصارت تميل إلى احتكار كلِّ شيء.

بدأ الاحتكار بالتلفاز، فلا قناة تعلو على قناتها. وليتها اكتفت بأن تشاهدَها وحدها، بل راحت تفرض علينا أن نتسمّرَ أمامها أيضًا، وانتقل الأمرُ إلى الأحذية، فبتنا ممنوعين من استعمال أحذيتنا التي باتت تراها ملكَها.

قرّرنا أن نترك الأحذية عند الباب الخارجي، وبعد أن سرق بعضُهم بعضَها، قرّرنا أن نضعها في خزانة عدّادات الماء والغاز والكهرباء. ولأنّ نجمة كادت أن تتسبّب في حريق شامل، فقد اتفقنا على أن نضعَها في أكياس في الشّرفة، لنوهمها، حين إخراجها، بأننا نُخرج القمامة.

تترك أحدَنا يجهز الدّوش، ثم تنطّ داخله مثل ضفدعة، فلا تخرج إلا بعد أن تنشفَ رغبتُه في ذلك. أمّا المرحاض فهي تتصرّف على أنّه منطقة محرّمة على سواها، رغم أنّها ما زالت بالحفّاظ، والويل لمن داهمته الحاجة، إذ سيجد نفسَه مضطرًا لانتظار نومها، أو اللجوء إلى حيلة يصرف من خلالها بولتَه.

فلاش باك

أثمر كوني وحيدَ أمّي وأبي، بعد سنوات من انتظارهما لي، ميلًا منّي إلى روح الاحتكار، فقد كنت أفرض عليهما ألا يأكلا إلا بعد أن أزهدَ في الأكلة، وألا يناما إلا بعد أن أنام، ويحدث أن أرغبَ في أن أركبَ ظهر أمّي، عند حلول وقت إعداد الطعام فيفوتها ذلك، ويكفي أن تقولَ لأبي إنّني منعتها، حتى تنجوَ من العقوبة.

يومًا، زارتنا المرابطة لالّة فاطمة، وهي شريفة من قرية شريفة، لا تدخل بيتًا إلا ألزم أهلُه أنفسَهم بإخراج دجاجهم وسمنهم وعسلهم، ولا تغادره إلا بكسوةٍ جديدةٍ. أليست حفيدةَ رسول الله؟

وُضع طعام الإفطار، فكفَّ الجميعُ أيديهم، حتى تنهيَ لالّة فاطمة أكلها، إلاي فقد أطلقت يدي إلى فَخِذَيِّ الفرّوج.

. لا تأكل فخذي سيّدتك.

غلب علي الطبع، فلم أكفَّ عن اقتناص الفخذين، ولم يكفّ أبي عن الضّرب على يدي الجريئة. ثم غافلتُه وخطفتُ أحدَهما، وفي ذلك إهانة لمقام السّيدة الشريفة، فكان مفروضًا عليه أن يعيد لها بعض اعتبارها، خاصّة بعد أن قذفتْهُ بنظرة استنكارها.

خطفني مثلما يفعل عُقاب مع فرّوج، ووضع يدي على فرن الحطب المحمّرةِ حديدتُه، فملأت رائحةُ الشّواء الفضاءَ، ولم يرفعْ يدي عن الحديدة، إلا بعد أن أعطته سيّدته إشارةً بذلك، مع نبوءة شفعتْ لها عندي بعد أن كبرتُ:

. هذه اليد، لا يُصلحها إلا القلم.

حارسة الجوع

جهزنا البارحة طاولةَ الإفطار، وأخذ كلُّ صائمٍ منا مقعدَه، فحتى نجمة وعلياء تعتقدان أنّهما صائمتان، وتُخرجان لسانيهما دلالةً على ذلك، وما أن رفعنا الملاعقَ إلى الأفواه، حتى رفعت مريمُ عقيرتَها بالبكاء، طالبةً منّا أن نكفَّ عن الأكل والشّرب.

كانت تبكي وتتمرّغ حدَّ انقطاعِ النفس، كلّما رفع أحدُنا ملعقتَه، أمّا ملعقتها فلم تكفَّ عن الطواف علَى الأطباق.

طاق
طاق

أصدرت الملكة الأمّ قرارًا: ما تاكلوش حتى ترقد، راكم حابّين تقتلو الطفلة؟ نامت، وهي تحرس الطاولة، بعد ساعتين وتسعٍ وثلاثين دقيقةً من أذان المغرب.

الفدية

[1]

كانت المرّةَ الأولى، التي نخرج فيها للتنزّه ليلًا، بعد رحيل السّائق عمّي رزقي. وما أن أخذنا مقاعدَنا في سيّارة الشيفور الجديد، حتى انخرطتْ علياء ونجمة في بكائيةٍ حارّةٍ: كان عمّي رزقي يُعطينا الحلوى بمجرّد أن نصعد، وكان يُسمعنا أغنية «نتي باغية واحد». فبكينا جميعًا جارّين الشيفورَ الجديدَ إلى ذلك.

[2]

سألني مرةً في طريقنا إلى المسرح الوطني الجزائري، وقد كان الجزائريون مضغوطين بهاجس اختطاف الأطفال:

. واش تدير لوكان يخطفولك بناتك؟

استحضرتُ الحالةَ فعلًا، وانخرطتُ في كآبةٍ عميقةٍ، لم أستطعْ معها أن آتيَ بكلمةٍ واحدةٍ، فشرع يُلهيني بحديثٍ عن رحلته البحرية إلى الصّين الشعبية، في باخرةٍ عسكريةٍ، نهاية الثمانينيات. وطالت الحكاية والرّحمة، فغفوتُ إغفاءةَ من قضى ليلَه كاتبًا.

حديث الإغفاءة

حاولتُ أن أبدوَ طبيعيًا، أمام أمّي وأمِّ علياء، وأنا أسأل عن البنتين، فقالتا إنّهما خرجتا إلى شراء أوراق بيضاء، وأن أبقى طبيعيًا أيضًا، وأنا أغادر البيتَ، مستحضرًا تفاصيلَ المكالمة التي وردتني قبل قليل

. أنت السّيد بوكبة؟
. من أنت؟
. ما يجب أن يهمّك ليس هويتي بل مطلبي.
. ماذا تقصد؟

. ابنتاك مخطوفتان، وستبقيان في أمانٍ تامٍّ، إذا بقيتَ عاقلًا ولم تخبر الشرطة أو أحدًا مؤهلًا لإخبارها، واجتهدتَ في أن تتدبرَ نصف مليار.

. يا رجل.. أنا بلا وظيفة حكومية، وأعيش بما أكتبه من مقالات في الصّحافة العربية.

. لعلني الخاطف الوحيد الذي أشفق على ضحيته، فلم يطلبْ مبلغًا كبيرًا، وسأكلّمك بعد يومين.

كانت المكالمة من هاتف ثابت، ودلَّ رقمُها على أنها من ولاية تيزي وزو، وكان قلبي ينبض بكلِّ الأرقام وفي كلِّ الجهات، فخفتُ أن يتوقفَ قبل أن أتمكنَ من تحرير البنتين. هل سيطلقون سراحَهما إذا متّ؟

لم أردَّ على التحيّات التي صادفتني في طريقي إلى الأشجار التي خلف الحومة، ولا على المكالمات التي وردتني، وخانتني القدرة على أن أفصلَ في أسئلةٍ نَخَرَتْ مخّي: هل سأخبر أمّي وأمَّ علياء؟ هل سأخبر الشّرطة؟ من هو جدير من أصدقائي بأن أخبرَه؟ أم أنّني سألزم الصمتَ وأتفرّغ لتوفير المبلغ؟

أخرجتُ قلمًا وسحبتُ ورقةً كانت مرميةً في المكان، شارعًا في تسجيل أسماء معارفي المؤهلين لأن يُسعفوني بمبالغَ صغيرة. فوصلتني رسالة من صديقي القاص سليم بوفنداسة: «سلّمْ على البنات». فسمحتُ لدموعي بالهطول، ولم أسمحْ لنفسي بالرّد على مكالمات أمِّ علياء.

أحسستُ بالضّوء يغادر عينَيْ، والصوتِ يغادر أذنَيْ، والحركةِ تغادر مفاصلي، والهواءِ يغادر رئتَيْ، فتحرّرتُ من الحالة بإطلاق عيطةٍ ظهر لي من قوّتها، أنها طيّرتْ ريشَ العصافير وأوراق الأشجار إلى المرّيخ.

أيقظني عمّي رزقي من المنام الأسود: نوض.. لحقنا للمسرح.

. عمّي رزقي.. الآن أستطيع أن أجيبَك على سؤالك.

عرس الصّهيل

كنت تلميذًا في مدرسة «أولاد جحيش»، وكانت تستقبل تلاميذَ عربًا وآخرينَ أمازيغَ. ولأنَّ أمّي أمازيغية، فقد كنتُ أحسب نفسي على الفريقين، ولا أنحاز إلى أحدهما، يوم تشتعلُ هوشة من الهوشات.

كان التلاميذ العرب يأتون راكبين إناثَ الحمير، وقد سمّيتُ أتاني «طيطشة»، كما ورد في روايتي «ندبة الهلالي»، بينما كان التلاميذُ الأمازيغُ يركبون الذكورَ منها، ولكم أن تتصوّروا عرسَ الصّهيل، وما يترتّب عنه، حين يربط كلُّ فريقٍ دوابَّه.

مرةً..ارتمى حمارُ الفتى «قاسي» على أتان الفتى «الرّوجي»، ربّي يرحمهم في زوج، وقد كانت جحشةً هشّةً، فلفظتْ أنفاسَها تحت أنفاسِه، وهو الحدث الجلل الذي أجّجَ النفوسَ والرّؤوس.

انحاز الأمازيغ لقاسي أعلى المدرسة، وانحاز العرب للرّوجي أسفلها، أمّا أنا فاتخذتُ وضعيةَ عدم الانحياز، داعيًا إلى أن تبقى الحربُ باردةً، ولا تتحوّلَ إلى الصلكِّ والفلكِّ من أجل جحشة. أثار موقفي حفيظة الرّوجي، فدبّر لي مكيدةً طرحتني فراشًا.

غادرنا أقسامَنا عشيةً، وإذا بي ألاحظ أنّ الزملاء الأمازيغ ينظرون إلي شَرَرًا. ثم تحولتْ نظراتُهم إلى استفزازاتٍ، فهجومٍ جماعيٍّ ألهبني ركلًا ولكمًا وعضًّا وسبًّا وشتمًا:

.كيف تسبّ أخوالك؟

انتشلني المديرُ من بين الصّلب والمخالب، سائلًا عن سبب دمي

السّائل، فأشاروا له أن يقرأ الورقة المعلقة على ظهري. كان الرّوجي قد علّق ورقة كتب عليها شتمًا للزّعيم حسين آيت أحمد ربي يرحمو (4).

غربة العريس

صحوتُ اليوم، فلم أشأ أن أزعجَ قيلولةَ أمّي وأمِّ علياء، بأن أسألَهما عمّا ينقص من حاجات، فخرجت للتبضّع على طول.

صادفتُ علياء ونجمة تلعبان، عند مدخل العمارة، فأدهشني أنّهما رفضتا أن تصحباني إلى الحوانيت، وتسلّلتا إلى البيت، مطلقتين ضحكاتٍ أثارتْ في نفسي شكوكًا صاهلة.

غمرتني دهشة أخرى، إذ كنت ألقي التحياتِ الزّكياتِ، على من صادفني في الطريق، فلا تُرَدُّ علي إلا همهماتٍ، من ذلك النّوع، الذي يُفهم استعاذةً بالله العظيم من الشّيطان الرّجيم. ثم تفاقمت دهشتي، حين أعرض عنّي أصحابُ الحوانيت بوجوههم، رغم أنهم لم يمنعوني سلعَهم، وقد كنتُ زبونَهم المحتفى به كأنّه العريس. سليم صاحب الزّلابية، وسعيد صاحب اللّحم، ورابح صاحب بطاقات الهاتف، وهشام صاحب الخضر، ويوسف صاحب السّجائر، ونعيم صاحب الشّربات.

مرّ علي الفتى جامع الخبز اليابس على حماره، فتذكرتُ حادثةَ قاسي والرّوجي. ثمّ مرّت علي علياء ونجمة، طالبتين منّي ألا أقلقَ عليهما، لأنهما مدعوتان للإفطار عند طاطاهما «ف»، وتسلّلتا إلى بابها بالطريقةِ والضّحكاتِ المشبوهةِ نفسِها. واش راهو صاري في حومة الذراري؟ فتحت لي أمُّ علياء البابَ، ثم فتحت فمَها: بوكبّة.. عملت الماكياج؟

4 ـ زعيم سياسي وثوري جزائري ذو أصول أمازيغية.

نعش رئاسي

تقول أمّي إنّ حومتَنا مباركةٌ بوجود الفتى «موموح» فيها، وقد أنفقتْ جهدًا ووقتًا لإقناع علياء ونجمة بألّا تخافاه، واعتبارِه إنسانًا عاديًا مثلهما، والكفِّ عن الضحك عليه والسخرية منه، وقد أفلحتْ في ذلك فصارتا صديقتيه.

يحتفل موموح بعيد ميلاده السّابع عشر، وبالذّكرى السّادسة عشر لإصابته بالكساح، حتى صار بالكاد يمشي وينطق. ومن ميزاته أنّك لا تستطيع أن تعرفَ إن كان يضحك في وجهك أم يبكي.

قمتُ بإطلالةٍ من الشّرفة، قبل أن أتفرّغ لـ«عبادي» في المكتبة، فهالني عدد الأطفال يشكّلون حلقةً تحت شجرة العرعار، التي في قلب الحومة. وبينما كان موموح مربوطًا إلى جذع العرعارة، كانت علياء تحمل قصبةً وتخطب فيهم، آمرةً رياضًا وعليًّا بأن يصوّرا بشكل جيّد، إذ كانا يستخدمان قارورتين في هيئة كامرتين.

. ماذا تفعلون؟
. نصوّر حلقة من «ناس السّطح» (5).
. ولماذا ربطتم موموح بالحبال؟
. بابا.. نحن نمثّل فقط، موموح هنا هو الرئيس بوتفليقة.

فلاش باك

كنتُ أغادر البيتَ، بكرةً، رفقة خرافي إلى المرعى، مدجّجًا بوصايا أبي: حذارِ من الذئب/ حذار من العودة قبل أن يشتدَّ الحرّ/ حذارِ من الرّعاة/ حذارِ من استعمال الحجر في ردِّ الخراف. وكنتُ أطلق على كلِّ واحدٍ منها، اسمًا من الأسماء التي كنتُ أتمنّى أنْ لو كان لي. كان أشقاها وأكثرَها إزعاجًا الخروفُ «سعد»، رميته، ذات رمضان، بحجرٍ هشّم رأسَه الصّغيرةَ فمات.

هناك.. كان أوّلُ اتصالٍ مباشرٍ لي بالله، إذ وضعتُ الخروفَ سعدًا قدّامي، وانخرطتُ في نوبةٍ حارّةٍ من الدّعاء، بأن يعودَ إلى الحياة، فأنجوَ من عقاب أبي.

كان دعاءً لا تساورُه شكّيكةٌ، في أنّ اللهَ سيستجيب لي. فقد كنتُ أسمع أنّه قادر على كلِّ شيء، وكنت أفعل ذلك مغمضَ العينين، متأكدًا من أنني سأرى سعدًا ينطّ أمامي، بمجرد أن أفتحَهما. لكنَّ سعدًا لم يعدْ إلى غاية اليوم، مثلما لم يعتذرْ لي أبي، عن رأسي التي ثقبها انتقامًا لشهيده العزيز.

حدث أنّ جدّي الميلود، عاد عشيتَها من فرنسا، فطيّبَ خاطري، بأن أهداني مذياعًا جلبه معه، وإلى غاية هذه اللّحظة، لا زلتُ أتساءل: هل كنتُ سأصير إلى ما أنا عليه، من الانشغال الأدبيّ والإعلاميّ، لولا ذاك المذياع الكنز؟

إطلالة جنائزية

كان شخوص الرواية في السابق، يبذلون جهودًا لجعلي لا أنتبه إلى ما يدور من أصواتٍ وأحداثٍ خارج المكتبة، فما الذي حصل لهم اليوم، حتى طلبوا منّي بأنفسهم أن أضربَ إطلالة من الشّرفة، لأعرفَ لهم سببَ صياح الأطفال والنساء المعجون بصياح سيّارة الإسعاف؟

. علياء.. ماذا صار؟

. لم ننتبهْ إلى أن بوتفليقة اختنق بالحبال.. بابا.. أقصد مومح.

---

5 . أشهر برنامج تلفزيوني ساخر في الجزائر.

الغمّيضة

تدهشني براعةُ علياء في تنظيم لعبة الغمّيضة. تجمع نخبةً من الصّبايا، ما عدا «رياض» فهو يفرض نفسَه فرضًا، وتردّد معهن أغنيةً خليطًا من الفصحى والدارجة: «عندي قطّة/ في الحديقة/ اسمها شربق دربق/ ديقودا/ من يعيد اسمها/ يخرج من اللّعبة». بالموازاة مع انتقال يدها من صدرٍ إلى صدرٍ، لتكونَ صاحبة الصدر الذي تقع عليه يدُها مع الكلمة الأخيرة، هي من تغمض عينيها.

هنا تبدأ التقنية، التي أستفيد منها في كتابة روايتي الجديدة. أقصدُ ذكاءَ علياء في توجيه «رعاياها» إلى المخابئ التي يصعب اكتشافُها، بناءً على معرفتها الدقيقة بقدرات الصّبيّةِ مغمضةِ العينين.

إشارات سياسية

ما لم تتلقَ علياءُ معارضةً شرسةً، تهدّد بنسف اللعبة بالانسحابِ الجماعيّ منها، فإنها تحتكر إدارةَ اللّعبة حتى وإن كانت مريضةً.

إذا شعرتْ بالتعب أو الحاجة إلى الصّعود إلى البيت، لتشربَ أو تأكلَ أو تتَمَرْحَضَ، فإنّها تستخلفُ أختَها نجمة. في المقابلِ، لم يحدثْ أن انضمّتْ نجمة إلى حركةٍ ضد شقيقتها أبدًا، إلا تلويحًا بذلك، حتى تستمرّ امتيازاتُها.

إذا كان لها موقف سّيء من إحداهنّ، خاصّة ذوات الرّوح المعارضة، فإنّها توجّهها إلى مخبئ يسير، حتى تُكتشفَ سريعًا، وتعطيَ انطباعًا بأنها غيرُ جديرةٍ بإدارة اللعبة.

تملأ جيبيها بالحلوى، لتملأ أفواهًا تحدِّدها بعنايةٍ، إذ تذهب الحلوى إلى فمٍ معارضٍ قابل للسّكوت، أو فمٍ مساندٍ قابلٍ للمعارضة. وحتى تعطيَ انطباعًا بأنّ العطايا تخضع للمعيارِ الإنسانيّ لا غير، فإنها تمنح الحبّة الأولى للفتى «مومو» الذي تمنعه إعاقتُه من المشاركة في اللّعبة.

فلاش باك

كان سائدًا في مراعي «أولاد جحيش»، أن تُحضرَ الرّاعياتُ، من بيوتهنّ، دقيقًا وسمنًا وتوابلَ، لإعداد الغداء في قِدْرٍ كبيرة تحت شجرة الخرّوب. على أن يتولّى أحدُ الرّعاة مغافلة أحدِهم، لاختطاف خروف من قطيعه، وضمّه للوليمة بعد أن يذبحَه.

والسّائدُ أيضًا، أنّ الرّاعيَ الضحيةَ يصبح ملزمًا، إذا واجهوه بخروفه مذبوحًا، بمباركة الأمر والعمل على نسفه وسلخه وتقطيعه وإيصاله بنفسه إلى الطنجرة، مرفوقًا باستهزاءات الرّاعيات، لأنه فشل في حماية قطيعه.

مرةً، دعاني زملائي الرّعاة إلى أن نلعبَ الغمّيضة، فاخترتُ مخبأً لا يخطر على عين أو بال، ممّا أعطاهم وقتًا مريحًا للسّطو على أسمن خرافي.

لم أتحمّلْ أنَّ أبي ظهر في اللحظةِ نفسِها، التي رفضتُ فيها أن ألتزمَ بقانونِ اللّعبة، فأعطاني درسًا أثمنَ من الخروف: نسفَهُ وسلخ جلدَه وقطّعه وأوصله بنفسه إلى الطنجرة، ثمّ رفع بندقيته وشجَّ السّماءَ بطلقتين. فكانت زغاريدُ الرّاعيات، هذه المرّة، بديلًا للاستهزاء.

دوخة الذّئب

من عادتي أن أتركَ البنتين في غمرة الغمّيضة، بعد الإفطار، وأصحبَ الصّغيرةَ مريم، إلى حانوت الفتى الصّحراوي، لأجلب شايَهُ ومكسراتِه. عدتُ البارحة، فوجدتُ العيونَ مسلّطةً زوماتِها على «جثة» الفتى رياض.

. علياء.. ماذا صار؟

. بابا.. أصرّ على أن يلعبَ معنا الغمّيضة، فقمتُ بتوجيهه إلى الاختباء في القمامة.

ابتسامات بيضاء

أمادو القادم من منطقة «سيغو» المالية، تسعُ سنوات، واحدٌ من الأطفال الذين فرضوا أنفسَهم في القطار الرابط بين الجزائر العاصمة ومدينة الثنية، حتى باتَ من دواعي الملل، ألا نجدَه فيه.

إنّه براغماتي جدًا، فلا يطيل مع الشّخص الذي يظهر له أنه لن يعطيَه شيئًا، ويحرص على أن يقابلَ «بخلَه» بابتساماتٍ غزيرة، فقد يُعطيه في المرّات القادمات. عكس بعض أترابه الذين يُسيئون التصرّفَ في هذه الحالات أحيانًا، كما أنّه يستغل استعدادَ أحدهم للعطاء، باتَ يعرف ذلك من خلال قراءة الملامح وردود الأفعال، فيعمدَ إلى إغراقه بالدّعاء والعبارات الدينية المثيرة للسّخاء.

أكثرُ ما يُسعد طفلنا الأسمر، أن تسمحَ له بالاطلاع على الألعاب، التي يتوفّر عليها هاتفُك الذّكي. حينها يسهو عن صحنه وعن جيبيه، ويغرق في إنتاج الابتسام والضّحك لنفسه المحرومة من المدرسة والتلفزة والتكنولوجيا، ومن سقفٍ يأويه وأسرتَه في وطنٍ آمن.

فلاش باك

كنتُ منتسبًا ما بين سنتي 1990 و1993، إلى النظام الداخلي في مدينة برج بوعريريج. أمكث في المتوسّطة من السّبت إلى منتصف الخميس، ثم أغادر جريًا إلى المحطّة البعيدة، حيث لا توجد إلا حافلة يتيمة تربط المدينة بأولاد جحيش. وإن حدث أن فاتتني، فسأبقى عرضةً للتشرّد، في عزِّ غليان الشّارع بمسيرات جبهة الإنقاذ، وهذا الذي وقع لي ذات خميس.

انخرطتُ في مسيرةٍ، طمعًا في مبيتٍ، وحتى ألفتَ الانتباهَ إلى وجودي، فقد كنتُ أرفع عقيرتي بشعار المرحلة: «لا إله إلا الله، محمّد رسول الله/ عليها نحيا، وعليها نموت، وفي سبيلها نجاهد، وعليها نلقى الله». تفرّق الجمعُ قبيل المغرب، ولم أجنِ انتباهًا أو دعوةً لمبيت. فتقوقعتُ على خيبتي تحت جدار يوشك على السّقوط. مرّ حسين الكهل المالي، الذي تعوّدتُ على أن أصلحَ حذائي عنده، فأخذني معه.

كان بيتًا قرميديًا على أطراف المدينة، يضمّ أحدَ عشر مهاجرًا ماليًا، يتهيئون جميعًا لصلاة المغرب. قال حسين: «جئتكم بإمام»، فمن أخلاق القوم ألا يصلّيَ بهم أحدُهم، وفيهم مسلم عربي.

بعد الصّلاة، تحلّقوا حولي، وطلبوا منّي أن أكتبَ لهم أحجبةً تحميهم من طرد الشّرطة لهم. تردّدتُ لُحَيْظاتٍ، ثمّ انطلقتْ يدي في التّدبيج.

عدت إلى المتوسّطة صبيحة السّبت، شبعانًا مكسوًّا، ومدججًا بألفي دينارٍ بقيمة ذاك الزّمن. ولأنّني وعدتهم بأن أمكثَ عندهم بقية الويكندات، فقد ذهبتُ إليهم أمسية الخميس، ليخبرني الجيران أنّ الشّرطة هاجمتهم يوم الأحد، ورحّلتهم إلى الحدود.

اختطاف تكنولوجي

ليس من عادتي أن أنامَ في القطار، لكنّني فعلتها اليوم، تاركًا علياء ونجمة تلعبان بجهازهما العجيب. أصحاني أحدُهم عند وصول القطار إلى محطة آغا، فلم أجد البنتين: وين راحو يا ربي؟

يكذب من يقول إنَّ اللغةَ تستطيع أن تصفَ حالةَ أبٍ فقَدَ كبدَه. أكذبُ إن قلتُ إنّني لم أبكِ، وأنا أرى أمادو، في عربةٍ أخرى، غارقًا في جهاز علياء ونجمة، وهما تغرقان في ضحكاته البيضاء.

حديث الأرنوب

لم يكنْ من عادة الفتى المنادي على الخبز اليابس، أن يتجرّأَ على الدّخول إلى العمارة والطبطبةِ على الأبواب، لكنّه طبطبَ اليوم على بابي.

. أهلًا وليدي.
. صحّيت عمّو.
. دقيقة.. كاش ما نلقالك خبز.
. لا.. لا عمّو.. أنا جبت هدية لبناتك اللي راحو معايا ذيك النّهار.

وما أن ذكرَهما حتى ملأتا فمَ الباب، وراحتا تسألانه عن أرانبه وخرافه ودجاجاته وديكته وقططه وكلابه. أخرج لهما أرنبًا من القفّة، فدخلتا في نوبةٍ من الزّغردة.

—

فلاش باك

—

قدّمتُ استقالتي من المكتبة الوطنية الجزائرية نهاية 2004، والتحقت بالإذاعة الجزائرية، ثم وُعِدْتُ بالتوظيف في التلفزيون، شريطة أن أستقيلَ من الإذاعة، فاستقلتُ. لأكتشفَ أنَّ الأمرَ مجردُ مآمرةٍ علميةٍ، لحرماني من التّوظيف في الإذاعة. فعدت إلى بدايات التحاقي بالعاصمة يوم 30 جوان 2002، حيث لا سقف ولا لقمة ولا راتبًا.

التقيت الفتى غيلاس، الذي كنت ساعدته في مذكرة تخرّجه، حين كنتُ مستشارًا في المكتبة الوطنية، فعرض عليّ أن أقيمَ في بنايةٍ يُجهّزها أبوه في حومة الأقبية الثلاثة بضاحية الحرّاش. ولم تكنْ البناية إلا هيكلًا بلا أبوابٍ ولا نوافذَ، وتتحوّل، بعد المغرب، إلى محشاشةٍ لشباب الحومة.

أحدثتُ ثقبًا صغيرًا في الجدار، كانت تصلني منه حكاياتُ الشّباب، وهو من العتبات الأولى التي برمجتني على الكتابة السّردية، بطلبٍ من القصيدة نفسِها. بعد ثلاثة أيامٍ جائعةٍ بلياليها، صحوتُ فوجدتُ أرنبًا صغيرًا نائمًا في دائرة الضّوء التي أحدثها الثقب. استأنستُ به فأعطيته الماءَ والعشبَ والأمان.

بعد ساعاتٍ، بدأ الأرنوب يتحوّل في محّي من صديقٍ إلى وجبة. طرقتُ البابَ المقابلَ/ خرج إلي الفتى بدرو/ طلبتُ منه خنجرًا/ ادّعيت أنّني أحتاجه لتقشير البطاطا/ نسيتُ أن أطلبَ ملحًا أيضًا/ أمسكتُ الخنجرَ بقوّةٍ/ انطلقتُ إلى الأرنب بسرعةٍ، حتى لا أتراجعَ عن قرار ذبحه/ وجدته غارقًا في دائرة الضّوء/ خطفته خطفًا/ ذبحته ذبحًا/ بقي رأسه في يدي/ شرعتْ جثته تتخبّط في دائرة الدّم والضّوء/ انخرطتُ في نوبة بكاءٍ عميقة/ جمعتُ أكياسَ الإسمنت/ أشعلتُ نارًا/ سلختُ الأرنبَ، ورحتُ أشويه بدمعي.

أثارتْ عودتي، إلى البناية، جاريًا بالخنجر، شكوكَ الفتى بدرو، فنادي على فتيان الحومة. واقتحموا عليّ البناية، معتقدين أنّني ذبحتُ أحدَهم، فوقفوا على مشهد الأرنب المغدور، تمامًا في المكان الذي تعوّدوا على أن يسهروا فيه.

إفطار سنّي

تجتهد أمُّ علياء في أن تعدَّ وجبةَ الإفطار، ساعةً قبل الأذان، حتى لا يفوتَها مسلسلُها المفضّل. أوشك على أن يؤذن، فالتحقتْ بالمطبخ. ولم تجدْ إلا التمرَ واللّبن. أين بقيّة الأطباق يا ربّي؟

لو كان الأرنوب من النّاطقين، لاختصر علينا الحيرةَ، وأخبرنا بأنَّ علياء ونجمة، أحضرتا له كلَّ شيءٍ إلى الشّرفة.

الختان

لعلياء ثلاثةُ أخوال، أصغرُهم وأقربُهم إليها، رغم بعد المسافة، وليد الذي سبقته إلى الحياة بعام. بلغها خبرُ ختانه بمناسبة ليلة القدر، فبكته شفقةً عليه.

. جدّتي.. لماذا يختّنون الأطفال؟
. حتى لا يمرضوا ويكبروا بسرعة.
. الآن فهمتُ لماذا بقي جارنا علي، صغرونًا مثل حبّة بلّوط.

قلت في نفسي: عليك أن تشعري بالامتنان، لأنّ الجزائر ليست ضمن المجتمعات التي تختّن البنات، وإلا كنت الآن طريحة الفراش والفراشة مثل وليد.

فلاش باك

لم يثمرْ كوني وحيدَ أمّي وأبي، التعجيلَ بختاني فرحًا بي، بل تأجيلَه إلى السّنة الثّامنة، شفقةً علي. إذ كنت أتعلّق بحضن أمّي، كلما ذكروا لي ذلك، فيمنحونني عامًا إضافيًا. ولولا التدخل الصّارم للجدِّ، لامتدَّ التأجيلُ إلى أعوام أخرى، ووجد سي علي ختان «أولاد جحيش» وما جاورهم من قرى، نفسَه مضطرًّا إلى استعمال الفأس عوض المقص.

جاء على بغلته الشّهباء، وجاء الأعمامُ العرب والأخوالُ الأمازيغ، وغمّوني بالأهازيج والبارود والدّراهم والدعوات. نبّهني سي علي إلى

طائرة في السّماء، فلم أنتبهْ إلى أنّه طيّر شطرًا ميّ في رمشة عين، لطالما كانت أمّي تقول إنّه أعزُّ من العين. ومُنْذُها، بتُّ أربط النظرَ إلى السّماء، بندبةٍ في الجسد، فلا أدعو ربّي إلا برأسٍ خفيض.

ولأن مقصَّ سي علي كان يقلّم الأشجارَ ويجزُّ النعاجَ ويختّنُ الأطفالَ، فقد تقيَّحَتْ فراشتي وكادت تفقد نعمةَ الطيران إلى الأبد. باع أبي قطعةَ الأرض الوحيدةَ التي يملك، وعالجني في المدينة، حتى استعدت قطعتي.

بعد سبعة أعوام: دعاني إلى خرجةِ صيدٍ في الجبل. وحين بلغناه حطَّ بندقيته في راسي، وأمرني بإنزال سروالي. تبادر إلى ذهني ما يُمليه المقامُ من شكوكٍ، لكنّها زالت بقوله لي: هذه القطعة بيعت من أجلها الأرض، فاحذرْ أن تراها امرأةٌ ليست في مستوى الأرض.

مقصّ الفراشة

الحقَ.. الحقَّ أقول إنّني اكتشفتُ كوني كنتُ متعسّفًا في تعاملي مع شخوص روايتي الجديدة، برغبتي في أن أكتبَهم كما أريد، وهو ما اعتبروه ختانًا لخصوصياتهم، فراحوا يتمرّدون علي، ويؤجلون بوحاتِهم لي. تصالحنا.. واتفقنا على أن يبقى كلُّ واحدٍ منهم على ما هو عليه، وليذهب النّاشر والقارئ إلى جحيم تأويلاته.

أقمنا حفلةً صارخةً في المكتبة، كسرنا فيها أقلامًا ومزّقنا أوراقًا، وإذا بصراخ علياء يمزّقنا من أسفل الحومة. لم أستوعبْ منظرَها مرعوبةً، وهي تحمل مقصًّا يقطر دمًا. ولم أجد ما أقول لأمِّ علي، وهي تعنّفه على أنه أسلمَ فخذيه بسهولة.

هستيريا

وصلني ضحكُ علياء ونجمة، وأنا في المكتبة، فابتسمتُ له، ثم تواصل نصفَ ساعةٍ، فانزعجتُ منه. استمرّ ساعتين، فخرجتُ لأستطلع أمرَه، إذ لم تضحكا بهذا الارتفاع والاستمرار منذ أن وُلدتا.

توقعتُ أن تكفّا عن ذلك برؤيتي، فما زادتهما إلا ضحكًا. سألتهما عن السّبب، فكادتا أن تختنقا ضحكًا، وكادت أمّهما وجدّتهما أن تختنقا خوفًا عليهما. واش راه صاري مع الذراري؟

فلاش باك

كان سائدًا أن «أولاد جحيش»، يخرجون في شهر سبتمبر إلى الغابة للاحتطاب، استعدادًا لشتاء لا يرحم، حتى أنّه كان يصعبُ إيجادُ ذكرٍ بالغٍ في حوش من الأحواش. وهي الفرصة الثّمينة، التي تتبسّطُ فيها النّساءُ والصّبايا، بعيدًا عن المراقَبات المتعسّفة.

من ذلك أنّهن يضعن بذورَ «بورجوان» الشّبيهةَ ببذور اللفت شكلًا وحجمًا، في الحساء، ومن خصائصها أن تُدخل محتسيها في نوبةٍ هستيريةٍ من الضّحك، لا تتوقف إلا بعد ساعاتٍ طويلة.

مرةً، خرج رجالُ القرية إلى الغابة فجرًا، فجلبتِ النّسوة بورجوان، وأضفنه إلى المرق الذي مُنع عنّي، فاشتعلت التّرعة بالضّحك حدَّ البكاء.

كنَّ يضحكن لأتفه الأسباب، كأن تقعَ ذبابة على جبين إحداهن، أو

ينبحَ كلبٌ أو يُعبّرَ طفلٌ عن عطشه، أو تقولَ الجدّة ضاحكةً: «توقفن عن الضّحك». مالت الشّمس إلى المغيب، فملتُ إلى الثنيّة التي يطلع منها الحطّابة على بغالهم، حتى أبشّرَهم بما سمعتُ ورأيتُ من النّساء الضّاحكات. كانت إحدى تجاربي الأولى في ممارسة وسخ القوادة.

لم أتبيّنْ هل كانت البغال تمشي في الشّمس أم على الأرض، ظلالًا.. ظلالًا، فجريت إلى القافلة وتقيّأتُ خبري اللّعين. ولم أتوقّعْ أن يترك الرّجالُ بغالَهم للطريق، ويعمدوا إلى الأشجار ليسلّوا منها عيدانًا قاسيةً، ويستعيروا الرِّيحَ لأرجلهم، قاصدين الحوشَ الغارقَ في الدّوخة والضّحك. لم أتوقّعْ أن تتركَ العيدانُ عيدانًا على الأجساد الضاحكة. لم أتوقّعْ أن يأخذَ كلُّ رجلٍ زوجتَه إلى بيت أبيها، تاركًا صغارَها ينافسون الجراءَ في النّباح.

انتقام الكبار

قالت أمّي: لا شكَّ في أنّ البنتين تخطّتا عفريتًا، ولا بدّ من عرضهما على الرّاقي «شين». قالت أمُّ علياء: ماذا لو بقيتا على ضحكهما هذا؟ ألا تخشى عليهما الموت؟ خذهما إلى الطبيب. فيما قالت الصّغيرة مريم: بابا.. تغفشوححححوججغ بغ. رنَّ الجرسُ، ففتح البابُ.

- لماذا كلُّ هذا الاضطراب يا أمَّ مومّوح؟

- أخبرني ولدي مومّوح، بأنّه انتقم من علياء ونجمة، على ربطهما له بالحبال، بأن أعطاهما الأقراصَ التي يستعملها في تهدئة أعصابه.

زكاة الفطر

طرقتْ بابَنا سورياتٌ وجزائرياتٌ كثيراتٌ، يطلبن زَكاةَ الفطر. وهو ما أثار فضولَ علياء ونجمة:

. بابا.. ما معنى زَكاة الفطر؟

. صدقة نعطيها للفقراء، يومين أو يومًا قبل العيد، حتى يفرحوا مثلنا فيه.

. نعطي كلَّ الفقراء؟

. الأفضل أن نعطيَها لفقيرٍ واحدٍ، يكون قريبًا منّا، مثل خالتي «م» منظّفة العمارة. هل رأيتما يديها اللتين تشققتا من الجافيل، ورجليها اللتين شقّقهما الحذاء المطاطي؟

فلاش باك

قال لي جدّي: «ليس في حوشنا من يستحقّ زَكاة الفطر، فخذها إلى فلان في الحوش الفلاني». وأمر بأن يُعدّوا لي البغلةَ الشهباء.

كان الحوشُ الفلانيُّ بعيدًا مسافةَ ساعتين، وكانت البغلة تنهب الأرضَ نهبًا، ثم فجأةً كبحتُ سرعتَها، في بقعةٍ لا يرانا فيها إلا الله. نزلتُ عنها وتركتها تنال مرغوبَها من السّنابل الشهيّات.

لماذا تعطي الدّراهمَ لرجلٍ يملك ماعزًا وغنمات؟ ألستَ أولى بها منه، أنت الذي تلبس صبّاطًا مطاطيًا وسروالًا مرقّعًا؟ دُسَّها في جيبك واشترِ

بها من سوق الإثنين، ما يستر مؤخرتَك ورجليك، وقل إنّك أدّيتَ الأمانةَ إلى أهلها. أليس كذلك يا ربّي؟ هل توافقني الرأيَ يا عزيزي؟ أعلم أنك تراني وتسمعني، وهو ما يجعلني لا آكل ولا أشرب في رمضان، رغم أنّني وحدي. يا ربّي أشتهي سروالَ جينز وصبّاطَ جلد، وأريد أن أحتفظَ بهذه الدّراهم، فإن كنتَ تسمح لي بذلك، فلْيَمُرَّ عصفورٌ فوقي، وإلا سأواصل طريقي إلى الحوش الفلاني. مرَّ سربٌ كامل.

أدّى الجدُّ صلاةَ العيد الصّغير في جامع العرش، وعاد على البغلة نفسِها. فاصطفّت العائلةُ كلُّها لمعايدته، الكبار ثم الصّغار ثم النّساء. إلّاي فقد اكتفى بمدّ يده إليّ من غير أن ينظر ناحيتي، وهو ما فهمه الجميعُ غضبًا منه علي، وراحوا يتهامسون داعين الله أن يكونَ الأمرُ خيرًا. قال إنّني ارتكبتُ جريمة تقتضي العقاب، لم يذكرْها لهم، وعقابي أن أرعى القطيعَ طيلة يومي العيد، من مطلع الشّمس إلى مغربها.

لازلتُ أشعر حتى هذه اللحظة، بحرارة أنفاسه في أذني: التقيتُ صاحبَنا في صلاة العيد، وأنكر أنه استلم منك درهمًا واحدًا.

صدقة راكدة

عدتُ من مكتب البريد مكتظًّا بالغيض، لأنني لم أجد درهما واحدًا قد دخل حسابي، والعزاء في أنني اشتريتُ، قبل أيامٍ، كسوةَ العيد للجميع. التقيتُ الخالةَ «م» عند مدخل العمارة، طافحًا ووجهُها بالفرحات.

. ها خالتي «م».. فرحينا معاك.
. الله يستر علياء ونجمة، ويهنّيهم ويحفظهم ويخلّيهم ويبعّد الشر عليهم.
. آمين.. من فمّك لربي.. واش عملولك؟
. راك تشوف هاذ الخير؟ هوما اللي جابوهلي.

كان الكيسَ الذي يحوي كسوةَ العيد.

المتطرّف

كنتُ أشمّ الهواءَ في الشّرفة، بينما كان جاري «ي» ينقل أغراضَه إلى الشّاحنة، لينتقلَ إلى حومةٍ أخرى، فلم يبقَ له وجهٌ يُقابل به خلقَ الله هنا. تسلّيتُ بمتابعة المشهد من عَلٍ، وفجأةً نغزني هذا السّؤال: لم يكن التلفزيون من بين الأثاث، فكيف يستطيع أن يعيشَ أطفاله بدونه؟

أصل الحكاية

دعتنا الآنسة علياء إلى اجتماعٍ عاجلٍ في صالون البيت، وهدّدت من يتغيّب بألا تحادثَه أبدًا، «الأمرُ يتعلّق بمستقبلي أنا ونجمة، ولا داعي للتّساهل». قالت.

شوفوا يا عباد الله، من الآن فصاعدًا، لا أسمح لأحدٍ منكم بأن يناديني «علياء»، أو ينادي أختي «نجمة». إنّهما اسمان غريبان عن المسلمين، وقد صار اسمانا «خديجة» و»عائشة»، ونسمح لمريم بالإبقاء على اسمها. داكور؟

. داكور خديجة.. لكن لماذا هذا؟

. جارنا «ي»، أعطانا الحلوى وأفهمنا أنّنا نحمل اسمين ليسا مسلِمَين، وطلب منّا أن نفرضَ اسمينا الجديدين، حتى ننالَ رضا الله وندخلَ الجنّة.. بابا.. ألا تريدنا أن ندخلَ الجنّة؟

قلت في نفسي: ليس قبل أن أُدخلَ «ي» ناري. ثم أقنعتهما بأنّه تدخل في ما لا يعنيه، وبأنّ اسميهما رائعان، وليسا غريبين عن أسماء المسلمين.

فلاش باك

عدتُ إلى غرفتي الجامعية، من ملتقىً أدبيٍّ في وادي سوف عام 1998، فنمتُ من غير أن أنزعَ صبّاطي. ولم أنتبهْ إلى أنّ في الغرفة ضيفًا هو صديق لشريكي فيها. أخذتني عيني فأيقظني لصلاة العشاء. قلتُ إنّني صلّيتها جمعَ تقديمٍ مع المغرب، في مسجد الحي. نمت قليلًا فأيقظني لأشاركَه قيامَ الليل، وأمطرني بكلّ الآيات والأحاديث المرغّبة في ذلك، فحملني غضبي وتعبي على أن أقولَ له: أنا مسيحي من لبنان، ولستُ ملزمًا بصلاتك.. داكور؟

لم يستوعبْ مسيحيتي، فخرج مخنوقًا، ثمّ عاد بعد ربع ساعة، وأيقظني ثالثةً: «أشفقُ عليك من نار الله، فقمْ لأحدّثك عن الإسلام، لعلك تعصم دمَك». أخافتني الكلمة الأخيرة، إذ من يدريني أنّه على صلةٍ بجماعةٍ إرهابية، فوجدت نفسي أعلن «إسلامي» من جديد، على يديه، ب«لهجتي» اللبنانية، وأقضي ليلي مصليًا معه، أنا المرهق القادم من أعماق الصحراء.

احتجاج رسمي

كلّمتُ جاري «ي»، وطلبتُ منه أن يوافيني في البيت فورًا.

ـ خويا «ي». أنت تملك سيّارةً، وأحتاج ضرورةً أن تأخذني الآن إلى قسنطينة.

ـ أفعل بإذن الله يا جاري.

. بل قل يا أبا خديجة.

. الحمد لله على أن هداك إلى سواء السّبيل. هل تدري أنك سميتَ ابنتَك نجمة على اسم رواية للزنديق كاتب ياسين؟

. المهم.. سأحضر لك ما تأكله، فالسّفر يُسقط عليك الصّوم.

. عائشة.. جيبي لعمك الساندويتش.

لجة مفخّخة

راح يدور في الحومة، حاملًا السندويتش بيمناه، وهو غارق في الضّحك وسبِّ المسلمين والكفار معًا. فيما كان الذراري يتبعونه، وهم يصيحون ويقذفونه بالحصى: بولحية المهبول.. بولحية المهبول. كانت علياء ونجمة، قد طبّقتا وصيتي جيّدًا: ازرعا السندويتش ببقايا الأقراص المهلوسة التي أعطاها لكما مومو‌ح، كي يثأر من أنّكما ربطتماه بالحبال.

حرج التفّاح

مدخل

«إذا فُطم الطّفلُ على فاكهةٍ معيّنةٍ، صارت بديلًا لحليب أمّه، في عينيه، حتى يلقى حليب ربّه». جدّتي مريم ربّي يرحمها.

[1]

إذا حضرت فاكهة الدّنيا كلّها، فستختار علياءُ ونجمة ومريم منها التفّاح، وإذا أكلن تفّاحًا ثم طُلب منهنّ أن يأكلن شيئًا آخرَ، فسيطلبن التفّاحَ أيضًا، حتى أنّي اتفقت مع أمّهنّ على أن تخفيه عنهنّ إذا اشتريتُه، إلى ما بعد الغداء أو العشاء، حتى لا يزهدن فيه.

هذه نتيجة أنّك فطمتهنّ على التفّاح/ قالت.

. هيّا نخرج نتبضّع لرمضان.

. دعنا نأكل تفّاحاتٍ قبل الخروج.

—

شريط الذّاكرة

—

تأخّر فطامي لك، تمامًا مثلما تأخّر ختانُك. هذا ما يحدث عادةً

لوحيد أمّه وأبيه، لا يطيقان رؤيته باكيًا، فيُفضّلان إغضاب الأصول على إغضابه. وقد فطمتكَ على التّفّاح، لأنّه كان الفاكهةَ الوحيدةَ المتاحةَ في حوشنا صيفَها.

هل تدري يا ولدي، أنّ الأمّ تغار ممّن يميل ولدُها إليها؟ وأنا كنتُ أغار من شجرة التّفاح، لأنّك كنتَ تهرع إليها، وتحتضن جذعها، وتهزّها هزًّا، فلا تلبث أن ترمي لك بحبّةٍ أو حبّتين. تأكلهما ثمّ تنام تحت الجذع، مثل ملاك نسي جناحيه في السّماء.

مرّةً..

زارنا التّاجر عمر أوعاشور من بلاد زواوة، على بغلةٍ له تحمل تلّيسًا من التفّاح، ليبيعه في البيوت. فأنزله جدّك الميلود في دار الضّيوف، وقد وضع التلّيسَ تحت شجرتك، التي أغار منها.

كيف تسرّبتَ ليلًا من حضني إلى حضن الشّجرة؟

كيف عرفتَ أنّ ما في التلّيس تفّاحًا؟

كيف قضمتَه حبّةً.. حبّةً، ورميتَه علفًا للنّمل؟

أصحى فرّوجُ الفجر صاحبَ التفّاح، فأمسك فمَه مصدومًا، أمام التفّاح مقضومًا، ثم أطلقه بالسبّ والشّتم من الغضب. وقد حمدتُ اللهَ على أنّه استعمل الأمازيغية، فلم يفهمه أحد، وشكرتُ العنزة على أنّها زوّدتني بكمّيةٍ من السّمن، عوّضتُ له بها تفّاحَه.

كهرباء اللّحظة

[2]

بينما كنتُ أعدّ نفسي للخروج في غرفة النّوم، سبقني إلى مدخل العمارة، ولم أنتبه إلى أنّ الدّافع إلى ذلك، كان نداءَ بائع التفّاح على سلعته.

وأنا أنزل في سلّم العمارة، كنّ يصعدن حاملاتٍ كيسًا، وهنّ يُثمرن فرحًا من عيونهنّ وأفواههنّ: بابا تفّاح.. بابا تفّاح.

. من أين حصلتنّ عليه؟
. أعطاه لنا عمّو.

لم أشأ أن ألومه على أنّه ألزمني بمبلغٍ أنا بحاجةٍ إليه لشراء غرضٍ آخرَ، فسألته عن المبلغ على طول.
. هذه صدقة منّي، في رأس رمضان، على اليتيمات الثّلاث.
. إنّهنّ بناتي.
. لقد قلن لي إنّهنّ يتيمات. مع ذلك، لن أتراجع عن صفقةٍ عقدتها مع الله. وما دمتَ مصرًّا، فاشترِ منّي كمّيةً، وتصدّقْ بها على يتامى حقيقيين.

وأنا أصعد سلّم العمارة، وقد عدت من السّوق محمّلًا بالأكياس، سمعتُ امرأةً تناديني/ التفتّ ورائي/ كانت خطواتها وملامحُها توحي بشرٍّ وشررٍ/ وضعت الأكياسَ/ اختصرت لها المسافة احترامًا، بأن نزلتُ ما بقي منها.

. من كلّفكَ بأن تعطي التفّاح لابنتي؟
. سأشرح لك يا خالتي.
. لا أحتاج شرحًا. نيّتك واضحة، وهي أنّك تريد الوصول إلي لأنّني أرملة. خذ تفّاحك.
. أستغفر الله.
. ما ذنب الأكياس يا خالة، حتى تقذفيها برجلك؟

لم يزعجني أنّ أكياسي ذهبت أدراج الرّيح، في سلّم العمارة، بقدر ما أزعجني أنّ علياء ونجمة ومريم كنّ يكتفين، من بين كلّ المرميات، بجمع حبّات التفّاح.

نباح الدّمى

[1]

في الطابق الأوّل من العمارة، شرفة مسدودة. مخافة أن يصل الأطفالُ إليها، فبقيتْ سنواتٍ، حكرًا على الدّمى، التّي تسقط من الأعلى، سهوًا مرّاتٍ، ومرّاتٍ تتعمّد الصّغيراتُ رميَها، حتى يَنَلْنَ دمًى أخرى من أسرهنّ.

وقد بذلتْ علياء ونجمة جهودًا عظيمةً لإقناعي باقتحامها. لكنّني كنت، في كلّ مرّة، أختلق أسبابًا تُعفيني من الأمر. من قبيل أنّ لجنة الحيّ ترفض ذلك، أو أنّ هناك جرذانًا خطيرةً يمكنها أن تؤذيني. غير أنّهما تفطّنتا، اليوم، إلى حيلةٍ يستحيل، معها، ألا أقتحم الشّرفة الممنوعة.

[2]

. أين القصبة التي فيها ريشتي؟
. سقطت منّا في الشّرفة.

—

شريط الذّاكرة

—

أصبح حوشُنا ذات ربيعٍ، في قرية أولاد جحيش، على تسعةِ جِراءٍ تتداعى، بأعينٍ مطموسةٍ، على أثداء أمّها المحظوظة والمنكوبة في الوقت نفسِه. أمّا حظّها فمن عادةٍ جميلةٍ في القرية هي أن تُزيّن عينا الكلبة الوالدة حديثًا بالكحل، وأن تُصنع من أجلها «شخشوخة» بزيت

الزّيتون. تمامًا كما كانوا يفعلون مع النّفساء من النّساء. ونكبتها من أنّها لن تحتفظ إلا بجروٍ أو جروين، أمّا البقية فيتمّ رميُها في حفرةٍ عميقةٍ، تتغذّى فيها على نباحها حتى تموت.

عاين جدّي الجِراءَ، فاختار منها زوجًا ذكرًا، ثمّ وضع السّبعة الآخرين في قفّةٍ من سعفٍ، وأمرني بأن أصعد بها إلى الحفرة. لم يحدث قبلها أو بعدها أن تمنّيت العمى. لحظتَها تمنّيته، كما تمنّيت أن يطول بي الطريق، إلى حيث لا وصول إلى الحفرة. لكنّني وصلتها مدفوعًا بخوفي من أن يفهم الجدُّ أنّني متردّد في تنفيذ أمره، فأصبح جروًا ثامنًا.

وقفتُ على شفة الحفرة، فوقف داخلي صوتٌ يدعوني إلى الهرب بالجراء إلى حيث يمكنها أن تعيش، وكنت كلّما مسحت على أفواهها بإصبعي رضعتْهُ، وأصدرت أصواتًا أنينيةً تجرح أذن الرّوح.

هل أرمي القفّة دفعةً واحدةً، ثمّ أتخلّص من هول اللحظة بالرّكض إلى البيت؟ أم أرمي الجراء جروًا.. جروًا حتى لا تتأذّى عند السّقوط؟ لكنّني كنت أنا، فنزلت بها إلى الحفرة، وهالني وقوعي على كومةٍ من عظامِ جراءٍ سابقين.

الحقَّ.. الحقَّ أقول إنّني فضّلت، فعلًا، أن أبقى هناك. لأشارك صغاري مصيرَهم، على أن أواجه وجه جدّي مرّةً أخرى. غير أنّه صدمني بأن مدَّ عصاه إلي، وأمرني بأن أتشبّث بها، تمامًا كما صدمني سقوطُ الجراء من حضني، في ظلام الحفرة. وأنا أصعد إلى شمسٍ غارقةٍ في الاحمرار.

كهرباء اللّحظة

---

[3]

تدبّرتُ فأسًا وأحدثتُ ثقبًا في الجدار المؤدّي إلى الشّرفة، فواجهتني سبعُ دمًى مرميةٍ فيها، بابتساماتٍ معجونةٍ بالدّموع. دموعها أم دموعي، وقد تذكّرت الجراء السّبعة، في الحفرة المظلمة؟

[4]

التقطتُها دمعةً.. دمعةً، أقصد دميةً.. دميةً/ ضممتُها إلى صدري/ أسلمتُ إلى الجدار ظهري/ ورحتُ أعِدُها بألا أتركها تتساقط من حضني هذه المرّة.

[5]

من ثقب الجدار، كانت القصبة التي تعلوها ريشتي، تظهر رُوَيْدَةً.. رُوَيْدَةً.

[6]

مع غرقي في اللّحظة المستعادة، تذكّرتُ عصا جدّي، وهي تهوي إليّ في حفرة الجراء، فاعتقدتُ أنّه سيقتحم الشّرفة علي.

[7]

قمتُ مخطوفًا من غير الاستعانة بيدٍ أو اثنتين، فتساقطت الدّمى من حضني، عكس ما وعدتُها به تمامًا.

[8]

قذفتُ برأسي إلى ما وراء الثّقبة، فوجدتُ علياء ونجمة مكان جدّي.

خارج التحقيق

[1]

قد تتسامح أمّ علياء مع من يسطو على طعامها، لكنّها لا تتسامح مع من يسطو على منامها. خاصّةً وقت القيلولة، لذلك كان عتابها عاليًا، للبنات على دخولهنّ ضاجّاتٍ، بما شوّش على غرقي في عسل الكتابة.

. طاطا «ف» ضربها خطيبُها «ح» بعصا زيتونٍ ضربَ الكلاب، ثمّ سطا على هاتفها وحقيبة يدها.

. لا نستطيع أن نفعل لها شيئًا. فلتقصد الشّرطة.

. ماما.. كيف نسيت أنّها تصفّف لنا شعرنا، وتشتري لنا القصص، وتعلّمنا الطبخ، وتأوينا حين تهدّدينا بالضّرب؟

[2]

أخرج عويلُ «ف»، في ساحة الحومة، رؤوسَ الشّرفات وألسنتَها. «ما عنديش الرّجالة/ ما عنديش اللّي يْحامي عليَّ. هل كان سيفعل بي هذا، لو كنت أملك ذلك؟».

[3]

مسكينة، قالت أمّ علياء، تسكن وحدها، وقد ظنّت أنّ ارتباطها ب«ح» سيحميها. هل يطاوعك قلبُك أن تضربني بعصا زيتونٍ يا بوكبة؟

شريط الذّاكرة

حلّت العطلة، فحللتُ ضيفًا على خالتي في «ثاوريرث آث منصور». وما لفت عيني ليس قمّةَ لالّة خديجة المطاولةَ للسّماء، وهي المتعوّدة على قممٍ أصغرَ منها في أولاد جحيش، أو القطارَ الذي يشقّها في اللّيل والنّهار، وهي المتعوّدة على رؤية الجرّار، أو المثلّجاتِ الملوّنةَ، وهي المتعوّدة على الجبن المصنوع من حليب الماعز. ما لفتها كان شعرَ الصّبية زينة، مختصِرًا سنابلَ اللّيل وعطورَ المرتفعات.

كانت وحيدةَ أبيها، وكنتُ كلّما رأيتها نسيت أمّي وخالتي، وسرحت في مشيتها وضحكتها ونظرتها ولفتتها ووقفتها، ورحت أبحث عن الكلمات لأدعو الله أن يجعلني قريبًا منها. فلا شكّ في أنّ الحديث إليها أشهى من عسل النّحل، الذي كنت أتعقّبه في الثقوب وجذوع الأشجار، ومن حكايات خالتي عن حوريات البحر وغيلان الغابات.

تلاشت شهيّتي للطّعام، ورغبتي في النّوم والكلام، ولم يعد لي هاجس إلا أن أكون قريبًا من زينة. لماذا أزهد في الدّنيا حين أمتلئ بأنثى؟ لماذا لم أنتبه إلى أنّ زينة اشمأزّت من اهتمامي؟ لماذا لم أتفطّنْ إلى فخّها، وهي تشير لي بأن أتبعها إلى حديقة الدّار؟ لماذا لم أخفْ، وهي تقول لأبيها: «هذا»؟ لماذا لم أقاوم، وهو يقيّد يديّ؟ لماذا لم أصرخ وهو يعلّقني في شجرة الزّيتون؟ لماذا لم أخجل، وهو يعرّيني قطعةً.. قطعةً؟ لماذا لم أعترف لخالتي بهوّية الفاعل، وهي تمسّد جسدي بزيت الزّيتون؟

كهرباء اللحظة

[4]

أحبّ رجال الحماية المدنية، وأكره أصوات سياراتهم. فما الذي حصل في الحومة حتى جاؤوا؟ لم تكن نافذة مكتبتي مطلّةً، فلجأت إلى شرفة الكوزينة. يا إلهي.. كيف استطاعت «ف» أن تُضرم النار في زيتونات «ح»؟ سألتُ أمّ علياء. لكنّ «ف» نقلها شباب الحومة إلى المستشفى، قبل أن يحصل الحريق/ قالت. إمّا أنّ «ح» نفسَه فعل هذا ليُشوّه «ف»، وإمّا أنّ الله تولّى ذلك/ قالت أمّي.

[5]

نامت نجمة من غير أن نُغيّر ثيابَها، فلم يمنعني نومُها من أن أتدارك ذلك. لكن ماذا تفعل الولّاعة في جيبها؟

سرقاتٌ أمينة

[1]

من عادتي أن أقتطع مبلغًا صغيرًا، بداية كلّ شهرٍ، وأدسَّه في كتابٍ من الكتب، فقد تضطرّني إليه الطّوارئُ. ولئن كنتُ متسامحًا مع اليد، التي تمتدّ إلى النّقود التي في جيبي، أو تلك التي تقع منّي في الفراش، فلست كذلك مع اليد، التي تمتدّ إلى هذا المبلغ الخاصّ.

[2]

قبل شهرين، تفقّدت المبلغَ الخاصَّ، فلم أجد ثلثَه. وهو ما دعاني إلى أن أدعو المجلس الأسريَّ إلى الاجتماع فورًا: يدٌ من هذه التي تجرّأت على أن تمتدّ إلى الكتاب؟ ولأنّنا لا نلجأ إلى القَسَمِ في البيت، احترامًا للثّقة بيننا، فقد انتهى الاجتماع إلى اتهام شخص واحد هو: أنا.

شريط الذاكرة

كنتُ تلميذًا ضمن النّظام الدّاخلي، في مدينة برج بوعريريج، وكان يُخصّص لنا وقت في المساء لا يتعدّى ساعتين للمراجعة، لا يبقى منه شيء للمطالعة خارج المقرّر، فكنت أراجع دروسي المقرّرة، في الوقت المخصّص لذلك، ثم أطالع في مرحاض المرقد، بعد أن ينام زملائي. إذ لم يكن يُسمح بأن يبقى المرقد مضاءً إلا نصف ساعة بعد الدّخول، ثم تكون الرّؤوسُ جميعُها تحت الغطاء وجوبًا.

استثمرت ثقة أمينة المكتبة، في الفصل الأخير من المرحلة الثّانوية، 1996، وادّعيت أنّني أضعتُ آخرَ كتابٍ استعرته. أذكر أنّه كان الأعمالَ الكاملةَ لنزار قبّاني، إذ كنت في بداياتي الشّعرية، وكنت أرى فيه نموذجًا يُحتذى ومثالًا. لكن هل كان لي ما أردت؟ استدعاني المراقب العامّ للثّانوية، وقال لي في صرامة سوداء: إمّا أن تعيد الكتاب، وإمّا ستُحرم من المشاركة في امتحان الباكالوريا البيضاء.

كنتُ أظنّ أنّه يمزح، لكنّني تأكدت من أنّه الجِدُّ. ففكرتُ في إعادة الكتاب فعلًا، ثمّ تراجعتُ خوفًا من أن تهتزّ صورتي، إن أنا أعدته، بعد أن ادّعيت ضياعَه، فأصررت على أنه ضاع، وأبديت استعدادي لأن أعوّضه بكتابٍ آخرَ مهمٍّ مثله، فوافق المراقب على ذلك. لكن من أين لي بالمال. أنا التلميذ الدّاخلي، الذي كانت أمُّه تبيع بيضَها وبعضَ دجاجاتها، لتضمن له مصروفَه؟

قصدتُ جامع القرية بنيّةٍ مختلفةٍ، هي أن أختار عنوانًا من مكتبته. كانت لحظةً حرجة جدًّا، احتقرت فيها نفسي، إذ وجدتني أسرق في المكان الذي كنت أصلّي فيه، وأحفظ القرآن العظيم. فهل يصحّ أن أعود إليه مرّة أخرى، وأرفع يديَّ سائلًا ربّي شيئاً ما؟ هل من الذّوق أن أستعين بمن سرقت بيتَه؟

دخلت مثقوبًا بخوفي، ثمّ زادت الثّقوب، حين زَرْيَطَ البابُ. هل أصلّي تحيّة المسجد أم لا؟ لا بدّ أن أكون شفّافًا، فأصنّفَ نفسي. أصلّي إذا لم أجئ سارقًا، أمّا إذا صلّيت ثمّ سرقت، فسأكون عابثًا. والصّلاة ليست عبثًا/ بيت الربّ ليس عبثًا/ ربي ليس عبثًا. فالزمْ حدودَك يا عبد الرّزّاق.

التزمتُ ركنًا من الجامع، وانكمشت على نفسي، لأجدني أبكي بحرارةٍ. ثم فجأةً توقّفتُ عن البكاء/ وقفتُ وسط الجامع الذي كان

خاليًا إلا منّي/ ابتسمتُ في وجه الله: هل تسمح لي بأن أختار كتابًا بنيّة الاستعارة، لا بنيّة السّرقة، على أن أشتري نسخةً منه، وأعيدها متى وفّقتني لذلك؟

أذكر أنّه كان كتاب «الأمالي» لأبي علي القالي.

كهرباء اللحظة

---

[3]

أعيتني الكتابة، فَأَرَحْتُني بالاستجابة لغفوتي، وأنا مستعدّ لأن أكره كلَّ من تطرقُ عليّ غرفتي.

[4]

. من؟
. علياء
. ماذا تريدين؟

. أردّ لك أمانةً أخذتُها منك، قبل شهرين. كنتَ وضعتها في الكتاب، وكان لا بدّ، يومَها، أن أساعد بها صديقتي «م». أضاعت ساعتها، وأمُّها من النّوع الذي لا يشفق عندما يضرب.

. رائع. ولكن من أين عوّضت المبلغ؟
. من الكتاب.

بوسعدية

[1]

أستمتع، مرّاتٍ، بمرافقة البنات إلى حوانيت الحومة، للتبضّع، ومرّاتٍ أجعل متعتي في إرسالهنّ وحدهنّ، ومتابعتهنّ من الشّرفة. إذ يصغر حجمهنّ ويكبر ولعي بهنّ، فلا أغادرها حتى يظهرن عائداتٍ، مثل عجائزَ أكلن رؤوسَ الأعوام والأزواج، فهنّ يُقصّرن الخطوَ، حتى يُطِلْنَ الحكايات.

[2]

مرّاتٍ يجلبن غرضًا لم نوصيهنّ عليه، ومراتٍ ينسين غرضًا خرجن أصلًا من أجله، ومراتٍ ينسين أنفسهنّ، فلا يعدن إلا بعد أن أترك قلمي، وأخطّ الطريقَ بحثًا عنهنّ. تمامًا مثلما حدث لي اليوم.

—

شريط الذّاكرة

—

كنّا صغارًا في قرية أولاد جحيش، وكانت لنا أيّام خاصّة تكون فيها جرعة الفرح أكبرَ منها في الأيّام الأخرى، منها يوم عاشوراء. وعلى الأصدقاء الشّيعة أن يتريّثوا، فلا يسارعوا إلى الاعتقاد أننا كنّا نفرح بمقتل السّيّد الحسين، فقد قلت إننا كنّا صغارًا وقرويين لم يصلنا لا خبر الحسين، ولا خبر بني أمية. إنّما كان فرحنا بسبب ظهور بوسعدية، في ذلك اليوم بالذّات من العام، ليجعل للقرى الأخرى أيّامًا أخرى يفرح بها صغارُها.

وبوسعدية هذا يا سادة يا مادة يا أحباب الله، درويش ترافقه فرقة، منها من يضرب على الطّبل، ومن يضرب على الدفّ، ومن يضرب على الزّرنة. يقصد أحواشَ القرية حوشًا.. حوشًا، ليبارك العرائسَ والولدانَ والحجّاجَ والمشترى حديثًا من البغال والأفراس وكباش الإخصاب. وإن حدث أن وُجدت امرأة تأخّر عنها الحمل، بما يكفي لإثارة القلق، فهو مسموح لها بأن تحسن إخفاء وجهها بلحافها، وترقص في الحضرة حتى يُغمى عليها. فيما يُطلق بوسعدية صيحاتٍ عالياتٍ، يتخلّلها كلام مفهوم مثل: «يا ربّي يا عالي الأوتاد.. عمّر حجرها بالأولاد»، وكلام غير مفهومٍ يكون أخفتَ من الأوّل، فيضيعَ موجاتٍ.. موجاتٍ في الأنغام.

كنّا نُعفى من الرّعي، في ذلك اليوم، حتى لا تفوتنا بركة الزّائر السّنوي المقدّس. كما كان ظهوره مرتبطًا عندنا بحشو بطوننا بلحم الدّجاج البلديّ حدّ التّخمة. إذ كان ثابتًا أن تختار كلُّ امرأةٍ متزوّجةٍ أحسنَ ديوكها ودجاجاتها، وترميه بين يديه، فيجرّ عليه بخنجر يسمّى «البوسعادي». وكم كان يروق لي اختلاط رقصات الدّجاج المذبوح بأنغام الفرقة الذّابحة.

كنّا نلعب، يومًا، تحت شجرة الخرّوب، التي تجتمع تحتها عجائز القبيلة، ليطبخن العصيدة ويوزّعنها على النّاس، كي يسقط المطر في بدايات الخريف، فيحرثَ الخلقُ عُطْلاتَهُم. وحدث أن ذكر أحدُهم بوسعدية بسوءٍ. ياه.. لقد نظر إليه أحد الصّبية نظرة حارقة، ثمّ انسحب إلى الخلف.

وبينما نحن نتهافت على قصعة العصيدة، إذا بصاحبنا الذي ذكر بوسعدية بسوء يُطلق صرخةً لم تسعها السّماء. بتلقّيه ضربةً بحجرٍ سمينٍ، من يد الصّبي الذي غاب عن الأنظار. وحين سئل عن سبب ذلك

قال: «إنّني جئت إلى الحياة، بعد أن رقصت أمّي في حضرة بوسعدية، وأنا لا أسمح لمخلوقٍ في الدّنيا، بأن يسبّه أو يُسيء إليه».

—

كهرباء اللّحظة

—

[3]

خرجتُ ـ بعد أن استبطأتُهنّ ـ فصادفتُ الفتى «ر» المعروف بـ«هبّاط السّراويل»، لأنه يُهدّد الجميع بأن ينزع عنهم سراويلَهم، فأنكر أنّه رآهنّ، وانخرط معي في مسعى البحث، وهو يُهدّد من يُؤذيهنّ بنزع سرواله.

[4]

تخلّى عنّي، بمجرّد أن انتهت إلى أذنيه أنغامُ الزّرنة، وصيحاتُ شبابٍ استنتج أنّهم يرقصون عليها.

[5]

درت دورتين، فوقفت على مشهد قد أعجز عن كتابته: بوسعدية يُشعل الرّحبة بالأنغام، وشباب يُشعلون رقص بناتي بالتّصفيق.

[6]

انخرط «ر» هبّاط السّراويل في الحضرة عفويًا، وراح يستفزّ نجمة كي تراقصه، فاستجابت له. أصابتها الدّوخة، فتشبّثت به حتى هبطا معًا: هي وسروالُه.

ذبحت أخي

[1]

اليوم الأوّل من رمضان: بات البيت بحاجةٍ إلى خبرة المحقّق كونان، لمعرفة كيفية اختفاء أغراضٍ منه، وهويّة المتسبّبة في ذلك. فأمّي لم تعثر على صبّاطها وسجّادة صلاتها، وأمّ علياء لم تعثر على فستانها وصندالتها، وأنا لم أعثر على غلاف وسادتي. أمّا البنات فلم يفقدن شيئًا، ولا شكّ في أنّ كونان سيراعي هذا المعطى في تحقيقه.

[2]

اليوم الثّالث: انتفت حاجتُنا إلى كونان، بظهور أرنبٍ مرقّطٍ صغيرٍ في البيت.

. ما هذا؟
. أخونا الصّغير.
. من أين جاء؟
. هديّة من الخالة «م» منظّفة العمارة.

شريط الذّاكرة

كان جدّي يجمع أطفال العائلة البالغين والموشكين على البلوغ، بعد عودته من صلاة العيد الكبير، ليشهدوا طقسَ الذّبح فيتعلّموه. كان يقول لنا إنّ الرّجل الذي لا يتعلّم هذه الأمور في صغره، سوف يضحك عليه الرّجال في كبره.

أخرج نعجةً سمينةً من الزّريبة، ذات أضحى، واستقبل بها القِبلةَ، حتى تطاير دمُها على وجهي، فوقعت مغميًّا علي. كان ذلك، بالنّسبة إليه، فعلًا أبعدَ ما يكون عن هيبة الرّجال، فبيّتَ في نفسه أن يُلقّنني درسًا. وما إن صحوتُ، حتى تلقّفني مثل كتكوتٍ من تحت جناح دجاجةٍ، وراح يُطعمني صفعاتٍ لا زلت أذكرهنّ كلّما لمست وجهي، وهو يقول لي: ستكون أنت من يذبح شاة العيد في العام القادم

هل حقدت عليه؟ طبعًا. لكنّني غفرت له ذلك كلَّه، بمجرّد أن أهداني خروفًا ماتت والدته وهي تلده، وطلب منّي أن أربّيه. هل كان بحاجةٍ إلى أن يوصيني عليه؟ لقد انبريت عفويًا إلى تنظيفه من السّلاء، وحملِه بين ذراعيّ باحثًا له عن ضرع. هنا لا بدّ من التذكير بأنّ أبشع السّرقات في قريتي «أولاد جحيش» كانت سرقةَ الحليب من الضّروع، فكان حذري وأنا أفعل ذلك في أوجّه.

كنت أتركه ينام بقربي، وأتحمّل عتاباتِ أمّي، وهي تنظّف الفراش صباحًا، وقد تذكرتُ ذلك حين قرأت كلمة جوزيه ساراماغو في حفل تسلّمه جائزةَ نوبل عام 1998، حيث استرجع تلك اللحظاتِ البعيدةَ، التي كان جدّه لأمّه جيرونيمو يرغمه فيها، على أن يشاركه الفراشَ صغارُ الخنازير حتى لا تموت بردًا.

لقد وضعتُ حدًّا لتأنيب الضّمير، الذي كان ينتابني، كلّما هممتُ بإرضاع خروفي من زريبة جدّي، بأن أفتيتُ لنفسي بجواز ذلك. فجدّي ليس بحاجةٍ إلى كلِّ هذا الحليب، بينما يحتاجه خروف يتيم مثل خروفي، أقصد أخي الصّغير. من هناك بدأت أتعلّم – وأنا ابن العاشرة تقريبًا– كيف أخضِعُ الفتاوى الدّينية للعقل، وأنفر من تلك التي لا أساسَ عقليًا لها.

كنت أذهب باكرًا إلى المدرسة، التي تبعد عن حوشنا ستة كيلومترات تقريبًا، تاركًا أخي الصّغير يثغو احتجاجًا على أنّني تركته، وأعود عشيةً ليستقبلني بحرارةٍ تنسيني كوني وحيدَ أمّي وأبي. وقد حدث أنّني عدتُ إلى البيت، قبل أن أصل إلى المدرسة أصلًا، وفي فمي كذبة كبيرة أولى: لم يأتِ المعلّم اليوم، أما الكذبة الكبيرة الثّانية، فهي للمعلّم العزيز في الغد: «مرضت أمّي». لقد غيّبتُ، بسبب الخروف، معلّمي. وجعلت أمّي تمرض، أكثرَ من مرّة.

بات عمرُه عامًا كاملًا، فبات علّوشًا كاملًا، وبات استعدادي لأن أحتفل بعيد ميلاده الأوّل كاملًا، وستكون الفرحة بذلك فرحتين، فرحة عيد الميلاد، وفرحة عيد الأضحى.

عاد جدّي من الجامع البعيدِ، وقد صلّى صلاة العيدِ. فاحتشدنا، نحن أطفالَ العائلة، لنشهدَ طقسَ الذّبح. كنتُ نسيت أنّه قال لي، قبل عامٍ، إنّني سأكون الذّابحَ، لذلك تداخلت ركبتاي، حين ذكّرني بذلك. ثم صرتُ بلا ركبتين، حين أخبرني أنّ الرّأسَ المعنيَّ بالذّبح هو رأس خروفي، يقصد أخي الصّغير.

—

كهرباء اللحظة

—

[3]

كان منظرُ الأرنب مثيرًا للشّفقة واللّعاب معًا، وهو ممدّد فوق صحن الأرز/ لم تبقَ إلا خمسُ دقائقَ، وستنطّ في بطني أيّها المطبوخُ بشكلٍ جيّد/ دخلت البناتُ، وقد لعبن في ساحة الحومة منذ العصر/ خطف منظرُ الأرنب المطبوخ أبصارَهنّ/ فقدن الكلماتِ/ فقدن الأعصابَ،

فقَلَبْنَ طاولة الإفطار السّعيد، في غضب من غدروا بأخيها الوحيد.

[4]

فيما طار الأرنب الذي اشتريتُه إلى السّقف، خرج الأرنب الذي أهدته لهنّ الخالة «م» من الشّرفة، وراح يُبَحْلِقُ في الجميع.

كنتُ فدائياً في فلسطين

[1]

من العادات التي تغذّيني بروحٍ خاصّةٍ، تسابقُ البناتِ على طرق باب مكتبتي، لإخباري بأنّ موعد الأكل قد حان. وعادةً ما تقع شجارات وتطاحنات، بينهنّ، بسبب ذلك في الرّواق. وهو ما دفعني، إلى أن أضع جدولًا يُحدّد، بدقّةٍ، دورَ كّل واحدةٍ منهنّ، حقنًا لـ «الدّماء».

[2]

قبل أيّام، كان دورَ الصّغيرة مريم. وهي تتميّز عن أختيها، بأنّها لا تغادر الباب حتى أخرج، ولا ينفع معها قولي إنّني مشغول، وإنّني سأخرج بعد قليل. إذ تقابل ذلك بمضاعفة الطرق، ثم بمضاعفة البكاء، بحيث يصبح استمراري في الشّغل بلا جدوى.

[3]

طرقتْ، فخرجتُ على طول، توفيرًا للهدوء. ثمّ امتنعتُ عن مشاركتهنّ الطّعامَ، لأنّني نويتُ أن أجوّع نفسي، تعاطفًا مع الأسرى المضربين في سجون الاحتلال الإسرائيلي.

[4]

لم أحسب حسابًا لأعمارهنّ، فرحتُ أدخلهنّ إلى «اليوتيوب»، وأعرض عليهنّ مشاهدَ من صمود مروان البرغوثي ورفاقه.

شريط الذّاكرة

أهداني جدّي الميلود، وقد عاد صيفًا من فرنسا، ليُمضي عطلته السّنوية في أولاد جحيش، مذياعًا كان مدرستي الأولى، قبل أن أدخل المدرسة الابتدائية أصلًا. إذ عرفتُ، عن طريقه، أسماء العواصم والملوك والأمراء والرّؤساء والكتّاب والمغنّين وحركات المقاومة في العالم. أقسم بربّ الأثير إنّ ذلك الطفل كان يعرف «حركة التاميل» في سيريلانكا، و»حركة خلق» في إيران، وحركة تحرير إريتريا، وما كان يحدث في إقليم ناغورني كاراباخ. أمّا ما كان يحدث في فلسطين، فقد كان ملمًّا به إلمامه بما يحدث في حوش بيته.

يرجع الفضل في ذلك إلى برنامج «صوت فلسطين»، الذي كانت تبثّه الإذاعة الوطنية الجزائرية يوميًا، من السّادسة إلى السّابعة بعد الزّوال، قبل أن يتوقف بعودة السّلطة الوطنية الفلسطينية إلى رام الله، بعد اتفاق أوسلو. كان أبي لا يُفوّت هذا البرنامج، وعنه أخذت ذلك، فصرت أحفظ الأناشيد الفلسطينية، وأعرف أسماء القرى والحركات المقاومة وأسماء وجوهها، بل إنّني كنت ألتقط أسماء الشّهداء اسمًا.. اسمًا، فلا تفارق ذاكرتي إلا بعد شهور عديدة.

ذاك التّماهي مع أخبار الانتفاضة الأولى، التي كان يُغذّيني بها برنامج «صوت فلسطين»، ذكر الله الأحياءَ ممّن كانوا يُعدّونه ويُقدّمونه بخير، ورحم من رحل منهم، جعلني، مرّةً، أغرق في خيال تسبّب لي في وجبةٍ من الضّرب، لم أنسَ طعمَها، إلى غاية هذه اللّحظة.

تخيّلتُ نفسي في فلسطين، متقدّمًا كوكبةً من الشّباب الملثّمين، في هجوم بالحجارة على دوريةٍ للاحتلال. كنت وحدي، في الحقيقة، أعلى البيت. وكنت، في الخيال، أرمي بالحجارة بكلّ قوّتي، وأنا أصرخ: «تحيا

فلسطين.. تحيا فلسطين».

لم أدرِ في غمرة «الجهاد» أنّ أحد تلك الأحجار المتحمّسة، قد أصاب أبي، وهو يُصلح قرميد البيت. ولم أتفطن إلى أنّه ترك شغله ونطَّ إلي/ أمسك يدي/ انتزع الحجارة منها/ طرحني أرضًا، وهو يُردّد: ألم أنْهَكَ عن القذف بالحجارة؟ ظننتُ أنّه جندي إسرائيلي، ورحتُ أستعمل قاموسًا لا يُقال للآباء، فقابل ذلك بضرب مبرّح، جعلني أخرج من الحالة، وأشرح له سياقَها.

كهرباء اللّحظة

---

[5]

بقي ربعُ ساعةٍ على موعد الإفطار، فلاحظتُ أنّ علياء ونجمة، لم تنخرطا معي، مثل العادة، في وضع الصّحون والأطباق والملاعق والكؤوس على الطاولة. تفقدتهما فوجدتهما غارقتين في اليوتيوب.

[6]

ناديتُ عليهما، وقد أذّن، فجاءتا متراخيتين/ انهارتا على مقعديهما/ لم تمدّا يديهما إلى صحنيهما/ سألتهما عن الأمر/ قالتا إنّهما متضامنتان مع الأسرى الفلسطنيين/ حاولتُ إقناعهما بالأكل/ فشلتُ في ذلك فشلًا جائعًا/ حملتُ الملعقةَ إلى فم علياء/ طوّحَتْ بها في الهواء/ حملتُ يدَها إلى ملعقةٍ أخرى، فصبّت الصّحنَ على ثيابي.

[7]

سامحني بابا.. تخيّلتك جنديًا إسرائيليًا.

حجاب ضدّ الكتابة

[1]

. اسمعي يا «ف». إذا سمحتُ بأن تستقبلي البنات في بيتك، لعلمي بأنّك وحيدة، وبحبّك لهنّ، فأنا لا أسمح بأن تصحبيهنّ إلى الرّاقي «شين».

. تعلم أنّني لستُ على وفاقٍ مع خطيبي «و»، وقد طمعت في أن أجد الحلّ عند الرّاقي.

. قد يكون طمعك في محلّه، لكنّ اصطحابك للبنات ليس كذلك. هذا العالم أكبرُ من إدراكهنّ، وقد وجدتهنّ واضعاتٍ أيديَهنّ على جباه دُماهُنَّ، وهنّ يقرأن عليها ما يعرفن من قرآنٍ عظيم.

شريط الذاكرة

كان يندر أن يخلوَ قطيعُ أغنامٍ، في قرية أولاد جحيش، من كبشٍ يُسمّى كبشَ بلّعموري، صاحب الزّاوية المعروفة في منطقة سيدي عيسى. حيث ينتقي الموّالُ، في موسم الولادات، أجودَ الخراف وينويه للشّيخ. فيحظى بأجود أنواع العلف، وببقايا الكسرة والطّعام، ولا تفارق الحنّاءُ جبهتَه الغرّاء. وهو ما يجعل منه أليفًا يغشى حتى غرف النّوم، ومن هذا الذي يفكّر في أن ينْهَرَ كبشَ الشّيخ؟ لقد كانوا يُعاملونه كما لو كان الشيخَ نفسَه.

ذات ضحى..

كلّفني جدّي بأن أسوق القطيع إلى الوادي، فظهر لي أن أتخذ من كبش بلّعموري مطيّةً، إذ كان يبدو مثل حصانٍ لعيشه الرّغيد. ولأنَّ حظّي كان بغلًا، فقد رآني جدّي. ولكم أن تتصوّروا كعكة الضّرب التي أكلتها ضحاها. كان يقذفني، باتّجاه شجرة الزّعرور، حتى يتطاير الدمُ من رأسي: «هل تريد أن تجلب الشرّ للعائلة، بإهانتك كبشَ الشّيخ؟». وقد عمد، حتى يتجنّب ذاك الشرَّ المتوقّعَ، إلى اتخاذ قرارٍ، فور عودة القطيع إلى الزّريبة، تمثّل في تسمية كبشٍ آخرَ على الشّيخ، عوضًا عن الكبش المهان، فسارعتْ جدّتي إلى تحنية جبهته.

كان الكبش المقدّس، في تلك القرى، التي لم تحظَ بالكهرباء إلا مطلع التسعينيات، إمّا يُباع في السّوق المشتركة للأعراش، ويُرسل ثمنُه إلى الزّاوية، وإمّا يُساق بشحمه ولحمه وثُغاهُ إليها، رفقة الأطفال والعرائس الجديدات لنيل البركات.

هل كان السكان يقطعون أمرًا دون استشارة الشّيخ؟ من قبيل شراء سيارةٍ أو جرّارٍ أو بغلٍ أو فرسٍ، أو بيعٍ أو شراءٍ، أو زواجٍ أو طلاقٍ أو ختانٍ أو ذهابٍ إلى الطبيب أو الاكتفاء بالأعشاب؟ وقد شاهدتُ الشيخَ، في كلّ الزّيارات التي رافقتُ فيها عائلتي، يُصغي للجميع رغم كبر سنه، من مواليد 1921، ستّون عامًا منها في المشيخة، ويُطلق نصائحَه التي يتلقّفها الزوّارُ بصفتها مسلّماتٍ لا تخضع للنّقاش.

كرّس هذه الثقةَ، بين النّاس وشيخهم، ما سمعوه عن كراماته. من قبيل أنّ مدافع الجيش الفرنسي تعطّلت حين وجّهها إلى الزّاوية، بسبب لجوء المجاهدين إليها. أو ما شاهدوه بأعينهم، من خلال قصّة الرّجل، الذي هاجر إلى فرنسا، أثناء الثّورة، ثمّ عاد إلى القرية نهاية الثمانينيات،

فاشترى أرضًا وتزوج. قيل له عليك، قبل أن تفعل هذا، أن تستشير الشّيخ بلّعموري. قال فيه كلامًا قبيحًا، فشُلَّ تمامًا، ولم يُشفَ إلا بعد نقله إلى الزّاوية واعتذاره للشيخ، الذي قال له: كنتَ في غنىً عن استشارتي فيما أنت حرّ فيه، إذ ليس واردًا أن تستشيرني في زواجك، لكن لماذا شتمتني وشتمت جدودي؟

قال لعائلتي، قبل أن أولد بشهرين: «سيولد لكم ذكر، بإذن الله تعالى، سمّوه «رزيق»، ولا تسألوه أبدًا من أين جاء أو إلى أين هو ذاهب، وسيسلط اللهُ عقابَه على من يكذب عليه، وسيكون همّه أن يقرأ ويكتب». وما همّني، في هذا كلّه، أنّني استمتعتُ، ولا أزال، بحريةٍ مطلقةٍ، منذ كنت رضيعًا، بسبب وصيّة الشيخ. حتى أنّهم كانوا لا ينهرونني، وأنا أتوجّه إلى الكانون، فكنتُ أخرج بحروقٍ كثيرةٍ، من موسم الشّتاء.

كهرباء اللحظة

---

[2]

. أين البنات يا مدام؟
. عند طاطاهنّ «ف».

[3]

. أين البنات يا «ف»؟
. عند سعيد صاحب الحانوت.

[4]

. أين البنات يا سعيد؟

. عند الرّاقي «شين». هل ستدفع، الآن، ثمن الأغراض التي اشترينها له؟

[5]

هل كنت أجري أم أطير إلى بيت الرّاقي «شين»؟ هل أُسمعه ما لا يُرضيه، أم أكتفي بأخذ البنات من بين يديه؟ ماذا تفعلن هنا يا بنات؟

. طلبنا من الشّيخ أن يجعلك تكره الكتابة، حتى لا تدفن نفسَك في المكتبة.

يوم ضربني الرّئيس

[1]

ما أكثر المرّات التي تهاوشتُ فيها مع البنات! بسبب اختلاف خياراتنا التّلفزيونية. هنّ يفضّلن الرّسوم المتحرّكة، وأنا أفضّل نشرة الأخبار. وإذا كانت حاجتي إلى المشاهدة ملحّةً، فإنّني أضطرّ إلى رشوتهن بحكايةٍ أسردها أو قصّةٍ يقرأنها.

[2]

لا أعرف كيف صرن يُسمّين نشرة الأخبار «بوتفليقة»، لكنّني أعرف مصدر معرفتهنّ بكونه مريضًا، وبأنّه يتماثل للشّفاء في كلّ مرّة. إنّها الخالة «م» منظّفة العمارة، التي لا تكفّ عن الدّعاء له بالشّفاء، والقول إنّه إذا فاته أن يكون له أولاد، فإنّ الجزائريين كلّهم أولادُه.

—

شريط الذّاكرة

—

كان عمري تسعةَ أعوامٍ، حين قال لنا مدير المدرسة الوحيدة في القرية، سنة 1986، إنّه علينا أن نحضر باكراً، بعد أربعة أيام، ليتمّ نقلنا في حافلةٍ خاصّةٍ إلى مدينة المنصورة والمشاركة في استقبال الرّئيس الشّاذلي بن جديد. وطلب منّا أن نختار أحسن ثيابنا لنكون في مستوى المناسبة.

بدأت القرويّاتُ في إعداد أولادهنّ لمقابلة الرّئيس. فراجت بينهنّ تجارة الدّجاج والسّمن البلديين والدّيك الرّومي والأرانب المنزلية، حتى يضمنّ مالًا يشترين به لأطفالهنّ ثيابًا جديدةً من السّوق الأسبوعية.

كنت صديقًا وفيًّا للمذياع، فكنت على علم باسم الرّئيس، لكنّني لم أكن أعرف ملامحَه، إذ لا كهرباء في القرية، ومنه لا وجود للتلفزة فيها. فراح الخيالُ يلعب دورَه، في رسم صورةٍ له، ثمّ محوها، ورسم صورةٍ أخرى، فمحوها، حتى نال منّي النّعاس.

رأيتُ، في المنام، رجلًا طويلًا ووسيمًا ومهندمًا، فوق حصانٍ أبيضَ تكاد حوافرُه لا تلامس الأرض لنشاطه. ثمّ رأيت سكان القرية يخرجون لاستقباله هاتفين: «يحيا الشّاذلي... يحيا الشّاذلي». فرحت أهتف معهم، وأخترق صفوفهم لأكون أقربَ إليه منهم. طلب منّي راكب الحصان أن أمسك بلجامه حتى يترجّل ففعلت. وما أن وطأتْ قدماه الأرضَ حتى أَفْلَتُّ الحصانَ، فراح يركض بعيداً في البراري.

انتزع الرّئيسُ العصا من شيخٍ كان يهتف باسمه، وراح يضربني بها ضربًا لا رحمة فيه، والنّاس يهتفون. الرّئيس يضربني وأهلي يهتفون باسمه. لم أصرخ، لم أحتجّ، لم أبكِ، ثمّ فجأةً توقّف عن ضربي، مشيراً إلى النّاس بأن ينوبوا عنه في ذلك. فصحوتُ مثقوبًا بالرّعب من منامي المكَوْبَس.

كانت المرّة الأولى، التي أرى فيها مركبةً ضخمةً. أقصد الحافلة التي أرسلوها من الولاية لتحملنا إلى دائرة المنصورة. وكان الجميع يرتدون ثيابًا جديدةً. بعضهم كان يرتدي ديكًا روميًّا، وبعضهم دجاجتين وبعضهم لترين من السّمن، أمّا أنا، فقد كنت أرتدي أربعةَ أرانبَ، باعتها أمّي لعجوز تستعدّ ابنتُها لأن تضع مولودًا.

كاد قلبي يخرج من فمي، حين وصلنا إلى المكان. ما أكثر التّلاميذ الذين جيء بهم مثلنا! هل يُعقل أن يختارني الرّئيس من بينهم جميعًا ليضربني؟ ثمّ كيف سيراني وأنا سأختار الصّفوف الخلفية؟ فكّرت في أن أتسرّب، من بين الجميع، وأفرَّ إلى بيت خالي. وفي اللحظة التي قلت في نفسي إنّها فكرة جيّدة، قال لي مدير المدرسة إنّه علي أن أرافق هذا

الشّاب وأطيع أوامرَه. كان أحد قادة الكشّافة، وكان مكلّفًا بأن يختار، بالتّنسيق مع مدراء المدارس، أنجبَ التّلاميذ ليكوّن منهم كوكبةً تكون في متناول مصافحة الرّئيس.

كانت الشّمس تشوي الأبدان، وكان العطش يشوي الحلوق، وكان الجوع يشوي البطون، وقد تأخّر موكب الرّئيس إلى الواحدة زوالًا. كان الجميع يتمنّى وصوله ما عداي، فقد كنت أدعو الله بحرارةٍ أن يموت فلا أراه ولا يراني، إذ سأصير أضحوكةً إن هو ضربني أمام هذه الحشود. فجأةً انتفخت الحناجرُ: يحيا الشّاذلي/ يحيا الشّاذلي/ يحيا الشّاذلي. كان الرّئيس يحيا في الكلمات، وكنت أنا أموت بعيدًا عن أيّ انتباه.

—

كهرباء اللّحظة

—

[3]

ارتفع عويلُ نجمة قادمًا من غرفة جدّتها: مات... مات، فتركت ما بين يديّ في مكتبتي، وهرعتُ إليها.

[4]

وجدتُ علياء «ميّتة» فوق الكرسي، الذي جلبتُه لجدّتها، من دبي، كي تستعين به على الصّلاة، ووجدت نجمة متشبّثةً بها، وهي «تذرف» الدّموع: مات الرّئيس.. مات الرّئيس.

[5]

فتحت علياء عينيها ضاحكةً: ما تخافيش.. لقد دعت لي خالتي «م» بطول العمر.

ثورة شهرزاد

[1]

من طقوسي أن أحتفل باكتشاف مسلسلٍ مبدع، في فضائية من الفضائيات. وهذا ما فعلته علياء ونجمة، عشيةَ اكتشفتا مسلسل «ألف ليلة وليلة»، في صيغته الكرتونية، على قناة «سي. آن» العربية. وقد زاد تعلّقهما به، بعد أن شرحتُ لهما سياقات الحكاية.

[2]

امتدَّ شغفُهما بالمسلسل، إلى أن تدعوا جارهما «رياض»، إلى أن يشاركهما المتعة. وإلى إخراج الصّغيرة مريم، حتى لا تشوّش على سفرهم في الخيال.

شريط الذّاكرة

اكتشفتُ كتاب «ألف ليلة وليلة»، صدفةً، نهاية ثمانينيات القرن العشرين. في قريةٍ موغلةٍ في العزلة، والحكايات التي تمنح الجدّةَ سلطةً خاصّةً، وتتوّجها سيّدةً على الليل والأسماع. أي أنّ كتاب الحكاية الأوّلَ «ألف ليلة وليلة»، دخل عالمي وأنا مدجّج بروح الحكاية أصلًا.

كانت قرية «أولاد جحيش»، عام 1967 قد قرّرت أن تبني جامعَها، منفصلةً عن قريةٍ مجاورةٍ كانت تملك جامعًا. وقد تكفّل بمصاريف البناء والتأثيث، عمالُ القرية المهاجرون في فرنسا. ولا أدري، إلى غاية اليوم، من الذي أرسل، من هناك، الكتب التي شكّلت مكتبة الجامع.

مصاحفُ وكتبٌ ليس موضعَها، في العادة، مكتباتُ الجوامع. كتاب «الأمالي» لأبي عليٍّ القالي، وكتاب «كليلة ودمنة» لعبد الله بن المقفع، وكتاب «العقد الفريد» لابن عبد ربّه، وكتاب/كتب «ألف ليلة وليلة».

كان عمري اثني عشر عامًا، حين شرعت في التهام هذه المكتبة. إذ كنت أترك الأشغال كلّها وأهرب إليها. وهو ما كان سببًا في أن أحظى بوجباتٍ دسمةٍ من الضّرب والتّعنيف، من طرف الجدّ والأب. إذ كانا يرفضان أن أترك الحقل أو المرعى، وأنزوي لأقرأ كتبًا أكبرَ من سنّي. تجدر الإشارة، هنا، إلى أنّ القرويين كانوا يعاملون هذه الكتب على أنّها مقدّسة، ويُقسمون عليها عند النّزاعات. فهم لا يقرؤون ولا يكتبون، ويرون أنّ كلّ مكتوبٍ هو قرآن عظيم.

لازلت، إلى غاية اليوم، أتذكّر تلك الرّهبةَ، التي كنت أشعر بها، وأنا أفتح البابَ الخشبيَّ للجامع، فيحدث صوتًا يحفر في تربة الرّوح. أذكر أصابعي وهي تزرقّ من البرد، عاكفًا على القراءة في الجامع المعزول. أسمع صوتَ الجوع، مفضّلًا إكمال الكتاب، على العودة إلى البيت لأنال لقمةً.

نسيتُ لحظاتٍ كثيرةً حدثت في حياتي. لكنّني لم أنسَ أوّلَ مرّةٍ اكتشفتُ فيها جسدي/ أوّلَ مرّةٍ التحقتُ فيها بالإذاعة/ أوّلَ مرّةٍ لمستُ فيها كتاباً منشوراً/ أوّلَ مرّةٍ واجهتُ فيها «ألف ليلة وليلة»، في مكتبة الجامع.

نظرتُ إليه/ نظر إلي. ابتسمتُ له/ ابتسم لي. مددتُ إليه يدي/ مدّ إليّ يدَه. نسيتُ نفسي/ نسيتُ بردَ الأصابع/ نسيتُ الخوف من جدّي وأبي/ نسيتُ لغتي الفصيحة الصّارمة، التي تعلّمتُ أنّ الخطأ فيها، هو خطأ في حقّ كتاب الله. وكانت المرّةَ الأولى، التي أتذوّقُ فيها عسلَ الخطأ، وأكتشف أنّ هناك لغةً خاصّةً بالأرض، مثلما هناك لغة خاصّة

بالسّماء.

لم يكن مسموحًا بإخراج الكتب من الجامع، لكنّني أخرجتُ «ألف ليلة وليلة». لإحساسي بأنّه كتاب الهواء الطلق، ولا يُقرأ بين الجدران المغلقة. فقرأته في الغابة والوادي والسّهل والتلّة والجبل. تمامًا مثلما كان يُسافر السّندباد فيه. لقد صادقتُ كائناته واتخذتُ منها عائلةً جديدةً.

عدتُ، قبل مدّةٍ، إلى القرية. فلم أجد الجامع القديم، لقد هدموه وأقاموا، مكانه، مسجدًا جديدًا. سألتُ عن أمّي المكتبة، فقيل لي إنّها أزيلت، بحجّة أنّها كانت تضمّ كتبًا لا علاقة لها بالدّين. فتّشت في المكتبة الجديدة، فلم أجد إلا سيّد قطب يُحرّم الخروج على حكايته. شعرتُ بالاختناق، فانطلقت إلى الخلاءات، التي قرأتُ فيها «ألف ليلة وليلة»، وأطلقتُ صرخةً ردّدتها الأمكنة: شهرزاااااااااااااااااااااااااااااااااااد.

كهرباء اللّحظة

---

[3]

ما بال صراخ الطّفل رياض مهيمنًا في الصّالون؟ ما باله مقيّدًا فوق الكرسي؟ ما بال علياء تحمل سيفًا خشبيًّا؟ ما بال نجمة تضع قماشةً على عينيه؟

أنا: ما هذا؟

علياء: قرّرنا أن يكون هو شهريار، وأكونَ أنا شهرزاد. وظهر لي أن أقطع رأسَه بالسّيف، حتى أستطيع أن أحكي من غير خوف.

الفهرس

تمهيد 07
سمكة رمضان 09
أرجوحة مفخخة 12
ركض مشبوه 15
شهادة مذبوحة 18
ذهب أسود 21
مقود يتيم 24
حلوى الملاك 26
جزية الذّئب 29
فخاخ شقيقة 32
الفروج المقدّس 35
السلّة الصينية 38
ليلة القدر 41
أنا قاتل 44
الفنانة التشكيلية 46
شمس الكفيف 48
اغتيال رمضان 50
اختطاف انتقامي 52
الدكتاتورة 55
الفدية 58
عرس الصهيل 61
نعش رئاسي 63

الغميضة 66
ابتسامات بيضاء 69
حديث الأرنوب 71
الختان 73
هستيريا 75
زكاة الفطر 77
المتطرف 79
حرج التفّاح 82
نباح الدمى 86
خارج التحقيق 89
سرقاتٌ أمينة 92
بوسعدية 95
ذبحت أخي 98
كنتُ فدائياً في فلسطين 102
حجاب ضدّ الكتابة 105
يوم ضربني الرّئيس 109
ثورة شهرزاد 112

بوصلة التّيه

كيف جئتُ إلى الكتابة السّردية؟

إلى اللحظات التي قمت فيها لأعيش، ولم أجلس لأكتب.

عبد الرزاق

تحت الرّعاية السّامية للرّاوي

[1]

كانت غرفتي في الحيّ الجامعيّ بجامعة سطيف، ضاجّةً بالدّمى وزجاجات العطر، التي أهدتها لي الطالبات، اللواتي كتبتُ لهنّ رسائلَ عاطفيةً لأصحابهنّ. إذ كانت ولا تزال تلك رشوتي الوحيدة. وبصور الكتّاب والفنّانين المقرّبين إلى وجداني.

[2]

اقتحم عليّ غرفتي، ليلة 01 جوان من عام 2002، صديقاي الشّاعران جمال رميلي الذي جاء من ولاية خنشلة، ورابح ظريف الذي كان مقيمًا في الحيّ نفسِه. وقالا لي إنّهما سينطلقان فجرًا إلى الجزائر العاصمة، وهما يريدان أن أرافقهما. فقمت إلى ثيابي أغسلها استعدادًا لرحلةٍ لم أكن أعلم أنّني لن أعود منها، فلم أودّع دماي وصوري وكتبي وكراريسي، التي لا أعرف شيئًا عن مصيرها.

[3]

تنفّس الفجرُ عن ثيابي مبلّلةً، فانطلقتُ مع شريكيَّ في الرّحلة، ولم ألبسها إلا على مشارف العاصمة. كما لم ألبس غيرها إلا بعد شهور. ذلك أنّني قلت لجمال ورابح، وقد طلبا منّي، بعد ثلاثة أيّامٍ، أن نعود من حيث أتينا: لن أخرج من الجزائر العاصمة إلا على آليةٍ حدباءَ، فانطلِقا راشِدَيْنِ. قالا إنّك ستجوع هنا وتعرى. قلت: لن أبرح مكاني مهما يكن من شاني.

[4]

قبل أن أتعرّف على الإعلامي محمّد دحماني، ثمّ الشاعر طيّب لسلوس، اللذين تقاسما معي جيبيهما، على مدار شهور، تعرّفت في عراء العاصمة على نفوسٍ استفزّت في داخلي السّاردَ المخَدَّرَ بالقصيدة. فأحرقت مخطوطي الشّعري «أنثى الغيم»، وكتبت تجربتي «من دسّ خفّ سيبويه في الرّمل؟»، التي نشرت سنتين بعد ذلك، في طبعةٍ مشتركةٍ بين دار «البرزخ» والمكتبة الوطنية الجزائرية، في عهد إدارة الرّوائي أمين الزّاوي.

[5]

لم يستوعب عبد الرزاق القرويّ المشمول بمحبّة أمّه وأبيه في قرية أولاد جحيش، ومحبّة أصدقائه وصديقاته في جامعة سطيف، أن يبيت في عراء المدينة. لكنّ عبد الرزاق الكاتب المتطلّع إلى أن يخوض تجاربَ مختلفةً تمامًا، فرض عليه أن يتصالح مع الوضع، وأن يكون إيجابيًا، فيستثمرَ إبداعيًا في التّجربة. ولطالما خضع الأوّل للثّاني.

[6]

ترك لي رابح ظريف دريهماتٍ، فأكلت بهنّ اللوبيا، واشتريت «الشمّة». واستبدّ بي التعبُ، فلجأت إلى حديقة «صوفيا»، التي تحت البريد المركزي، وأسلمت جسدي إلى مقعدٍ حديديٍّ يتوسّطها. أمّا روحي فبقيت متوثّبةً تُراقب الكائناتِ التي رفعت رؤوسَها، وأطلقت علامةَ استفهامٍ كبيرةً: «من يكون هذا الوافد الجديد؟». هناك جرّبت ما معنى أن ينام الإنسان، ويصحوَ في الوقتِ نفسِه.

[7]

بين الصّحو والنّعاس، أحسست بيدٍ تعبث في جسدي، فصار كلّي صاحيًا. كان كهلًا محطّم الأسنان والأيّام، فكأنه رسول اللّيل البهيم. لم أدرِ هل كان يريد صرّتي أم سرّتي، فباشرتُ معه أوّل شجارٍ في حياتي، أنا القادم من أعماق الكتب والمكتبات والكتاتيب. وفي اللحظة التي كاد يتفوّق فيها علي، تحت تصفيقات كائنات اللّيل الأخرى، أشرق فيَّ من تحت شجرةٍ قريبةٍ، ففرّوا مثل دجاجاتٍ رأت ظلَّ نسرٍ يحومُ، وآواني داخل كوخه الكرتوني المجيد. أقصد داخل حكايته المضيئة بالأحداث المظلمة.

[8]

ترك قادة الغليزاني الدّراسة باكرًا، وبات ساعيًا في أحد الأضرحة المقدّسة، فنسي نفسَه فيه. خاصّةً بعد أن ذبح الإرهابيون أباه وأمَّه وأخويه.

[9]

كان يُغادر صباحًا، فلا يعود إلي في الحديقة إلا مغربًا، محمّلًا بالطعام والشمّة (1) وما كتبته السّماء من شقيقاتها. فكنّا نغرق في التهام ذلك، ثمّ نطفو فوق حكايته: أحسستُ أنّ الله قادني إلى الضّريح لأنجو. ولم يبقَ لي إلا الشّيخ في قبره، أحدّثه كلما طاحَ اللّيلُ ويُحدّثني، فإن نمتُ استمرّ حديثُنا في المنام.

---

1 . تبغ محلّي يُخزّن تحت الشّفة.

[10]

ولم تزل تلك حالي، حتى ظهرت «زهرة» في حياتي، فأزهرتْ فيها أمور لم أكن أعلم أنها تزهر أبدًا. صارت تتذرّع بزيارة الضّريح لتزورني. ثمّ تتذرّع بالمبيت عند خالتها وتبيت عندي. ثمّ اختفت تمامًا، بعد أن أرسلت لي ورقةً مع ابنة خالتها، مكتوبًا على وجهها الأوّل: «عزيزي قادة. لا تنتظرني بعد اليوم، فإنّي ذاهبة حيث لن تجدني أبدًا»، ومرسومًا على الوجه الثّاني وجهُها.

[11]

اعتقدت في البداية أنّها تختبرني فصبرتُ، ثمّ طال غيابُها فالتهبتُ. ولم أجد بدًّا من حشر ابنة خالتها في زاويةٍ من زوايا الضّريح وتهديدِها: أين زهرة؟ خافت أن أُخرج أنفاسَها فصعقتني بالخبر الكسيح: «هربت ببطنها الذي منك، إلى حيث لا يجدها أبوها فيقتلها».

لم أجد فسحةً للتفكير والحركة، ولم ألحق أن أسألها عن وجهة زهرة، فهربت من بين يدي. رفعتُ عينيَّ إلى ضريح الشّيخ، فعاتبني على أنّني لقّحت فتاتي في حضرته، من غير أن أحسب لوجوده حسابًا.

[12]

لم يتأخّر قادة عن دخول الجزائر العاصمة، بعد أن علم بدخول زهرة إليها. فصار على معرفةٍ بحوماتها وأوكارها، وصلةٍ بصعاليك ليلها ونهارها. مثلما لم يتأخّر لحظةً عن حمايتي وإطعامي ونقل تلك المعرفة إلي. فكأنّه كان يُهيّئني لأن أعتمد على نفسي، بعد أن يختفي هو فجأةً. أين ذهبتَ يا أخي الصّغير؟ هناك جرّبتُ مرارةَ أن يفقد السّاردُ راويه. وعمّمتُ مقامَ قادة على شخوص روايتي «ندبة الهلالي»، إذ كانوا جميعًا يبحثون عن حبيباتهم.

[13]

مطر
مطر
مطر

فهوت الكرتونة التي ورثتُها عن قادة في حديقة صوفيا، لأنّني لم أبذل جهدًا في إعادة ربطها، زهدًا فيها بعد اختفاء الرّاوي. فأسلمتُ نفسي للاغتسال بالمطر والالتحاف بالرّيح. ريح
ريح

ريحٌ داعرة أخذت أغراض امرأةٍ تتشبّث بصغيرها، بين أقواس قصر العدالة في ساحة بور سعيد، منها حقّاظاته ورضّاعته، فلم تدرِ هل تتركه أم تتركها، فتولّيت أنا جمع تلك الأغراض.

. يرحم والديك.
. والدينا ووالديك.

[14]

هل إحساسي بحاجتها إلى رجلٍ يحميها، أم إحساسي بحاجتي إلى امرأةٍ تشبه أمّي، هو ما جعلني أبقى قريبًا منها؟ كنت مثقوبًا بكتابة نصوصٍ قصيرةٍ جدًّا، شكّلت لاحقًا كتابي «من دسّ خفّ سيبويه في الرّمل؟»، فأخرجتُ كنّاشتي وقلمي، ورحتُ أكتب نصًّا أوحته اللحظة. ليس في هذا الكتاب نصّ لم يكن ثمرةً لمعايشةٍ حيّة.

في الصّباح، وقد ذهبت الرّيحُ إلى جهةٍ أخرى، أخرجتْ من حقيبتها بورتريهاتٍ قالت إنّها رسمتها لأناسٍ طلبوها منها. «أنا لست متسوّلةً، بل أطعم طفلي بريشتي. هل تريد أنْ أرسم لك واحدًا؟».

. لا أملك مالًا.
. لكنّك تملك قلمًا.
. تقصدين أن نتبادل الإهداء؟
. بل أن نتبادل الإبداع.
. أنا أكتب وأنت تترجمين النّصَ رسمًا؟
. واه. (2)
. أنتِ من الغرب الجزائري إذن.
. من غليزان.
. اسمي رزيق
. اسمي زهرة
. هذا إذن ولد قادة!

[15]

حدث أن لمتُ نفسي مرّاتٍ كثيرةً في حياتي، لكنّها جميعَها لا تتفوّق على تلك المرّة في القسوة. فقد تسرّعتُ في كشف معرفتي بمن هربتْ منه أصلًا. وهو ما جعلني أفقدها بعدها.

[16]

حين أتيح لي أن أنشر «من دسّ خفّ سيبويه في الرّمل؟»، عام 2004، وقد أصبحتُ مستشارًا في المكتبة الوطنية الجزائرية، رأيتُ أن أكون وفيًّا لاقتراح زهرة، بأن تكون رسوماتها إلى جانب نصوصي. فرسمتُ لوحاتٍ طفوليةً ضمّنتها للكتاب. قلت لمصمّمه الفنّان فاروق درارجة: لقد رسمتُ جهلي بالرّسم. قال: المهمّ أنّك كتبتَ معرفتَك بالحياة.

2 . تعني «نعم» في لهجة الغرب الجزائري.

تحت الرّعاية السّامية للشّاعر

بعد اختفاء قادة وزهرة معًا، لجأت إلى مقرّ اتحاد الكتّاب الجزائريين. فاحتضنني الشّاعر طيّب لسلوس، قبل أن يلتحق بنا الكاتبان الخيّر شوّار وعلي مغازي. نبيع الكتب نهارًا، ونخوض في الأفكار والأحلام والأوهام والنّميمات ليلًا. أيّامًا نطبخ بأنفسنا، ونقصد المطعم أيّامًا. هذا إذا جاز لي أن أسمّي ما كنّا نطبخه طعامًا.

جاءت فاتورة الكهرباء، فتماطلت إدارة الاتحاد في دفعها. ممّا أدّى إلى قطع الضّوء عنّا. وهو الوضع الذي مهّد لانضمام كائناتٍ جديدةٍ إلينا، هي الجرذان السّمينة. خفناها في البداية وحاربناها، ثمّ تعوّدنا عليها وصالحناها. حتى أنّنا كنّا نطلق على بعضها أسماءً.

سلام على «حفيظة»، وهي تدخل علينا، من غير خوفٍ منها أو تحفّظٍ منّا، فتأخذ مرغوبَها من الأكل، وتغادر في طمأنينةِ كاتبةٍ جاملها النّقاد.

ذهب لسلوس، ذات ويكاند، ليتفقّد صغارَه في «قصر البخاري»، وذهب شوّار ليتفقّد والديه في «بير حدّادة»، فواجهتُ كثرة الظلامِ وقلّة الكلامِ. ولم أنتبه إلى أنّ «حفيظة» سبقتني إلى صحن العدس، فثقبتني أوجاع تعجز اللّغة عن وصفها. تمامًا مثلما عجزتُ عن الوصول إلى الباب الجانبيّ لمقرّ الاتحاد، حتى أخرج إلى خلق الله، فيأخذوني إلى المستشفى.

كنت أزحف على بطني في الظّلام، فتنير في مخّي صورتا أبي وأمّي، اللذين تركتهما في قرية «أولاد جحيش»، ودخلت العاصمة بحثًا عن وجودٍ سينتهي بعد لحظات. من هذا الذي أكل من الصّحن نفسِه مع الجرذان وأفلت للموت؟ من هذا الذي سيدخل علي لأحمّله رسالةً أخيرةً لهما؟ ليتني استجبت لجمال رميلي ورابح ظريف فعدت معهما.

تذكّرت رواية «الحلزون العنيد» لرشيد بوجدرة، وقد حرّرتني، سابقًا، من عقدة فأرٍ عضّني في الصّغر. فضاعفتُ زحفي وإيماني بالوصول. بلغتُ السلّمَ الرّخاميَّ، ولم أمهل نفسي لتفكّر في طريقةٍ مثلى للنّزول، فأسلمتُ نفسي للكركبة عليه، حتى لا أخسر وقتًا يجعلني أخسر حياتي.

يعرف الذين يعرفون مقرّ الاتحاد، أنّ المسافة بين أسفل سلّمه الرّخاميّ وبابه الجانبي لا تتجاوز عشرة أمتار. لكنّني قطعتها زحفًا على بطني في ساعةٍ أو أكثر بقليل. بلغتُ الباب الحديديَّ، ففقدت الإحساس بنفسي، ولم تبقَ إلا أصوات السّاهرين من الشّبابِ، خلف الباب، تصلني متقطّعةً، فأكملها في خيالي. هل كنت أضحك، وأنا أسمعهم، أم كنت أبكي؟ هل عرفت طيّب لسلوس والخيّر شوّار، وهما يدخلان عليّ صباحًا، أم حسبتهما ملاكين نزلا ليُنقذاني من السّماء؟

لقد اتخذتُ قرارين، بعد أن شفيتُ تمامًا، هما التخلّص من «حفيظة»، والجلوس، كلَّ ليلةٍ، خلف الباب الجانبيّ لمقرّ اتحاد الكتّاب. لأبحر في حكايات شباب شارع ديدوش مراد. من غير أن أنتبه إلى أنّ ساردًا صغيرًا بدأ يتشكّل داخلي، تحت الرّعاية السّامية للشّاعر، الذي كان قد قطع أشواطًا في الإنصات لذاته.

تحت الرّعاية السّامية للخرافة

كان الشّاعر طيّب لسلوس مشرفًا على معرضٍ لبيع الكتب في مقرّ «اتحاد الكتّاب الجزائريين»، صيف 2002. وقد لاحظ كوني آخر المنسحبين من قاصدي المقرّ، فأدرك أنّني أعاني أزمة مبيت. عرف ميّ أنّني أواجه العراءَ، بعد أن يُغلق الباب الرّئيسي للاتحاد، فقال لي: «ابقَ لتبيت معي، على أن تخفي الأمر عن الآخرين، فقد يكيدون لي كيدًا».

[2]

عرّفني، ذات صبيحةٍ، على إنسانٍ غارقٍ في طيبته، وفي بيع البطاقات البريدية. فعرض علي أن يُعطيني كمّيةً منها لأعرضهاعلى المحالّ والمكتبات، فنتقاسم ما يُباع، وأردّ له ما يبقى.

[3]

وضعت البطاقاتِ الأنيقةَ في كيسٍ أنيقٍ، وانطلقت من مقرّ اتحاد الكتّاب، في شارع ديدوش مراد، إلى غاية البريد المركزي. فلم يقبل واحد شراء بطاقةٍ واحدة. كنت أتوقّع أن أبيعها كلَّها، فأغيّر ثيابي التي كنت قد دخلت بها الجزائر العاصمة، رفقة الشّاعرين رابح ظريف وجمال رميلي، لكنّني غرقت في خيبةٍ تناطح عمارات ديدوش.

[4]

عدت إلى مقرّ اتحاد الكتّاب، مثل قصيدةٍ عمودية خانها الإيقاعُ،

فلاحظ الإعلامي محمّد دحماني ذلك منّي. كان سكرتيرًا لرئيس الاتحاد، فعرض عليّ أن أرافقه في الغد، إلى مقرّ أسبوعية «شباب 2000»، لمالكها محمّد قرّوش، علّه يستطيع أن يُقنع رئيس التحرير سليمان جلواح بتشغيلي.

[5]

قال لي سليمان إنّهم سيُعطونني عشرة آلاف دينارٍ جزائريّ في الشّهر، مقابل أن أشرف على صفحةٍ تعنى بتزويج العوانس، عنوانها «دق المهراس»، باسمٍ مستعارٍ هو «الشّيخ رابح».

كانت الجرائد الصّفراء وقتها مهيمنةً على السّوق، فكانت تصلني يوميًا عشرات الرّسائل والمكالمات. وكنت أقرأ وأسمع باهتمام من يريد أن «يُحلّل» دنانيرَه، ليُغيّر صبّاطه وثيابه، ثمّ صرت أقرأ وأسمع باهتمامٍ إضافي، إذ بدأت أواجه مادّةً روائيةً مغريةً، بعد الأيّام الثلاثة الأولى.

[6]

كان الشّرط أن ترسل القارئة الرّاغبة في الزّواج كيسًا صغيرًا من الملح. لأقرأ عليه، أنا الشّيخ رابح، ما تيسّر ممّا يُقرأ لفكّ العنوسة. قلت لدحماني: ليت الشّرط كان إرسالَ سندوتشاتٍ محترمةٍ، فنأكلها عوض الكارنتيكا بالهريسة المدغولة (3). حيث كنّا نتغدّاها، ونتعشّى ما كتب اللهُ، في كاراجٍ للسيّارات، كان يحرسه أخوه النّقي جمال.

[7]

كنتُ، قبلها، خاضعًا لصرامة الشّاعر، فلا أتقبّل الغلطَ في النّحو والصّرف. فصرت أنسى ذلك كلّه، في رسائل القارئات. وأركّز على

نفسياتهنّ وذهنياتهنّ ومنبعهنّ الاجتماعي. وهي التجربة التي هيّأتني لأن أكتسب خبرةً، في مراعاة مستويات اللغة، داخل النصّ السّردي. إذ ليس معقولًا أن أكتب عن دكتورةٍ وماكثةٍ في تسرّبها المدرسي المبكّر بالقاموس نفسِه.

[8]

وكنت كلّما أتعبتني التجربة، أو عافها ضميري، كلّما عزّيت نفسي بأنّني سأقبض مالًا، وإن قلّ، في آخر الشّهر. جاء آخر الشّهر، فاستقبلته كما تستقبل عانس عريسًا. هل هناك داعٍ لأن أذكر غزارة الفرح في هذا المقام؟ هل هناك داعٍ لأن أصف خيبتي، وأنا أسمع رئيس التّحرير يقول لي، وهو غارق في الخَجل ميّي: الشّيخ رابح.. أقصد الأستاذ بوكبة.. إنّ الإدارة ترى أنها ليست قادرةً على أن تدفع لك الآن. وهي تطمع في أن يُساعدك صبرُك على أن تنتظر شهورًا أخرى.

. وداعًا.

[9]

رأيت ضميري يضحك علي في الرّوايا كلّها، وهو يُلوّح لي بأكياس الملح. فرأيت أن أبيّن له أنني كنت مهتمًّا بالتجربة لا بالمال، بأخذ رسائل القارئات. فصرت أغرق فيها، كلّما طاح الليلُ في كاراج السّيّارات.

---

3 . أكلة ذات منشأ إسباني، تتكوّن من الزّيت والبيض والحمّص المطحون.

تحت الرّعاية السّامية للتّشرّد

ساهمتُ، في رمضان 2002، رفقة الشّاعرين طيّب لسلوس ونجيب أنزار، في تأسيس مقهًى ثقافيٍّ في اتحاد الكتّاب الجزائريين، أسميناه «مقهى عبد الله بوخالفة» (4). وهو ما أثار حفيظة مكتب العاصمة، بحجّة أنّ في ذلك تعدّيًا على صلاحياته. فكان مقدّمةً لأن يتوقّف المشروع في اتحاد الكتّاب، برئاسة الشّاعر عزّ الدّين ميهوبي، وينتقل إلى المكتبة الوطنية الجزائرية، بإدارة الرّوائي أمين الزّاوي.

[2]

كنّا نقضي عاصفة النّهار في المكتبة الوطنية، وسحابة اللّيل في مقرّ اتحاد الكتّاب. وقد عدنا، ليلةً، أنا والطيّب لسلوس والخيّر شوّار وعلي مغازي وعبد الرّحمن هنانو، فوجدنا قفلَ الباب قد تمّ تغييرُه.

[3]

كنّا مفلسين إلا من نصوصنا، بما لا يسمح لنا باللجوء إلى الفنادق، فأوهمنا أنفسَنا بأنّ المبيت في عراء العاصمة، تجربة ملهمة وجديرة بأن تُعاش. ولأنّني كنتُ حديثَ عهدٍ بالعراء، فقد بادرتُ إلى تبييض اللّيل بالنكت.

[4]

توغّل اللّيلُ في المدينة والأحلام. فتركتُ الجماعة في شاطئ الكيتاني،

وانسحبتُ إلى ساحة الشّهداء. كنت منجذبًا إلى صوتٍ لم أدرك ما يكون، فكنت أتبع خطواتي مخدّرًا بالإيمان به. بلغتُ ساحة الحمام المقابلة لفندق السّفير، فلفتتْ انتباهي حمامةٌ معطوبةُ الجناح. ما أشبهني بك يا بنت السّماء، في هذه المدينة التي يُقلقها التّحليق! حملتُ من الأرض قطعةَ خبزٍ لأطعمها، فوجدتُني قد رفعتُها إلى فمي، من غير أن أشعر.

[5]

قبلها بيومين، كان أبي قد جاء من أولاد جحيش، إلى الجزائر العاصمة. وقد مضى على دخولي إليها سبعة أشهر. أذكرُ أنّني صرفتُ أنا ولسلوس معظم راتبينا الأوّلين من المكتبة الوطنية، في شراء شريحتين وهاتفين، فكلّمني أبي: «أنا في ساحة الشّهداء». كنتُ حينها بلا رأسٍ، فاستعدت رأسي فورًا. هذا أبي ولا بدّ أن يجد رأسي في مكانه. هرولت إليه من شارع ديدوش مراد إلى تلك السّاحة، فوجدته مشغولًا بالحمام.

في الليل: طبخنا له عدسًا باللحم في مقرّ اتحاد الكتّاب، وطبخ لنا حكاياتٍ قال لي شوّار إنّه فهم منها أنّنا اخترنا الطريق الصّعب، الذي يقتضي انتقاء الأصدقاء.

[6]

بقيتْ نتفةُ الخبز معلّقةً بين فمي ومنقار الحمامة وذكرى بَيّْ. وإذا بنداءٍ يأتيني على بعد شرود: يا وليدي.. أَرْبَحْ/ تعال. رأيتُ فيه أبي، فاستجبتُ له والحمامة المعطوبة في يدي. كان شيخًا طاعنًا في العمر ولباس البحّارة، واضعًا في المساحة الفارغة من المقعد الخشبي شكوةَ نبيذٍ و»خبزًا حافيًا». ما كان أشبهَ زادِه بالعشاء الأخير للسيّد المسيح! وما كان أشبهَ صوتِه بالصّوت الذي كنتُ منجذبًا إليه!

[7]

أنا سعيد القوسطو. كنتُ عازفًا في باخرةٍ زمن الاحتلال. وقد استعمرتُ هذه السّاحة بعزفي، بعد أن طلع علينا الاستقلال. لأكتشف بعد رحيل العمر، أنني كنت شبيهًا بالصّرصور، الذي يُهدر وقته في الغناء، بينما كان الآخرون يسطون على المباني التي خلّفها الفرنسيون. وإنّني أقول لنفسي كلّما عاتبتني: ذهب النّاس بالشقق الضيّقة، وربحتُ أنا كلَّ هذه السّماء والنّجوم.

[8]

إذا كان قادة الغليزاني قد زوّدني بخارطة اللّيل، في الجزائر العاصمة، فإنّ عمّي سعيد القسطو زوّدني بخارطة التشرّد فيه. وقد منحتُ تلك الخبرةَ لمنصور بن ذياب وعلي بلميلود بطلَيْ روايتي «ندبة الهلالي»: «يا ولدي.. إذا كانت المساجد بيوتَ الله، فإنّ الحانات بيوت أحبابه».

---

4 ـ من السبّاقين إلى تحديث الخطاب الشعري الجزائري. انتحر عام 1988 في قسنطينة.

تحت الرّعاية السّامية للجنون

التحقتُ بالعمل في المكتبة الوطنية الجزائرية، يوم 01 جانفي 2003. فصرت معدًّا ومنشّطًا للمقهيين الأدبي والفلسفي، بينما تفرّغ الشّاعران طيّب لسلوس ونجيب أنزار، قبل أن يلتحق بهما الشّاعر علي مغازي، لمجلّتي «الثقافة» و»الكتاب».

—

فلاش باك

—

كنت وحيدَ أبي، وقد استقلّ عن البيت الكبير، فكلّفني بأن أكون رسولَه إلى الحانوت، بعد أن تفاهم مع صاحبه، على أن يُعطيني ما أريد، ويسجّلَ ذلك في كرّاسةٍ خاصّة.

كان الحانوت يبعد عن بيتنا، في أولاد جحيش، بما لا يقلّ عن خمسة كيلومترات. وكان دافعي الأكبر في أن أذهب إليه من غير كسلٍ، أن أشتري بطارياتٍ جديدةً لمذياعي. لم تكن هناك كهرباء في القرية، وكانت البطاريات تنفد سريعًا، إذ لم يكن المذياع يُفارق أذني، ما عدا وقتَ الدّراسة أو النّوم. وكثيراً ما كنتُ أنام، ويبقى هو على قيد الاشتغال.

عرفتُ كلّ مخرجي الإذاعة الوطنية ومنشطيها وتقنييها، وأنا لم أغادر القرية بعد. وكنتُ أتخيّلني منشطًا، فأستدعي من أشاء من الأسماء المشهورة، وأحاورها في الخيال، على ضوء ما عرفتُ عنها، من خلال مذياعي الحبيب.

[2]

مات الرّوائي محمّد ديب، 02 مايو 2003، فقال لي مدير المكتبة الوطنية الرّوائي أمين الزّاوي إنه على المقهى الأدبي، الذي كان يحمل اسم الرّاحل أصلًا، أن ينظّم تأبينيةً تليق بالمقام.

[3]

بعد نهاية الأمسية التي قمت بتنشيطها، قصدني إنسان هادئ وودود: أنا محسن سليماني مدير القناة الإذاعية الأولى، وأرى أنّه من صالح الإذاعة أن تنتج لها برنامجًا أدبيًا.

—

فلاش باك

—

استضفت الرّوائي رشيد بوجدرة، في الخيال، وأنا طفل يقطف العسلوجَ في حقول أولاد جحيش. فكنتُ السّائلَ والمجيبَ في الوقتِ عينِه. وحدث أن التحقت بالإذاعة يوم 17 سبتمبر 2003. فكان ضيفي الأوّلَ على المباشر، وقد صرنا صديقين من خلال جلسات المقهى الأدبي في المكتبة الوطنية.

كان يجيب بنفسه هذه المرّة، وكنتُ سارحًا بما أثار الشّك فيه. فسألني بعد أن خرجنا: واش بيك كنت سارح؟ صارحته: كنت أقارن بين إجاباتك الليلة في الإذاعة، وإجاباتك على لساني، حين استضفتك في المرعى.

[4]

كان البرنامج يُبث ليلًا. وكان من شروط حمّام «بستان الجنوب»، الذي كنت أقيم فيه في باب عزّون، ألا يفتح بابه لمن يطرقه بعد السّاعة العاشرة. فكنت أنام، بعد نهاية المباشر، في قاعة التحرير بالطابق السّابع للإذاعة، على أن ألتحق بغرفتي في الحمّام، بعد شروق الشّمس والرّملاء.

[5]

جيئ بحرّاسٍ جددٍ لا أعرفهم ولا يعرفونني، فأبوا أن يُعطوني مفتاح القاعة، وطلبوا منّي، ما دمت أنهيت شغلي، مغادرة مبنى الإذاعة.

سائق العمل: وين نحطّك يا شيخ؟

كان ممكنًا في تلك اللحظة أن أعطيه ألف احتمال. لكنّني رأيتُ أن أكون في بقعةٍ أعرف ليلها عميقًا، فطلبت منه أن يوصلني إلى ساحة الشّهداء.

—

صرخة أولى

—

غمزتني كرتونة كانت تحت سلّم مدخل غرفة التجارة المقابلة لثكنة البحرية، فاستجبت لها. غمزتني إغفاءة أملاها تعب النّهار والميكروفون، فاستجبت لها. غمزني منام رأيت فيه شابًّا قادمًا إلي، فلم أستجب له. لقد ضربته برجليّ معًا إلى خصيتيه في المنام، فأطلق صرخةً ردّدها البحرُ في الواقع.

صرخة ثانية

تركت الفتى متكوّرًا على وجعه، وانطلقت راكضًا في ضباب العاصمة. ضباب.. ضباب.. ضباب، ترقّشه القطط والمتشرّدون والكلاب. بلغتُ السّاحة التي اغتيل فيها المسرحي عزّ الدّين مجّوبي، فَعَفَسْتُ قطًّا أطلق صرخةً ردّدها الشّارع.

صرخة ثالثة

بلغتُ تمثال الأمير عبد القادر، في شارع العربي بن مهيدي، فأقسمت ألا أتجاوزَه. أليس هو مؤسّس الدّولة الجزائرية الحديثة؟ إذن فليلحقني فتى الليل وليقتلني عند قدميه.

أسلمتُ ظهري للتمثال، من الجهة المطلّة على حانة القمر الأحمر. فإذا بي أسمع وَحْوَحاتٍ من الجهة المطلّة على مقهى ميلك بار، الذي وضعت فيه جميلة بوحيرد إحدى قنابلها، عام 1958 خلال ثورة التحرير.

كانت الوحوحاتُ لمهبولٍ يُضاجع مهبولةً، من النّوع الذي نسي الماءُ جسدَيهما. أكملا غزوتيهما، فانتحى العريسُ يتقيّأ كأنّه بلع قطةً جرباء، فيما أخرجت العروس أحمرَ الشّفاه، من حقيبة تدّعي أنّها حقيبة، وأطلقت زغرودةً سمعتُها في القمر.

تحت الرّعاية السّامية للخيال

كنت أقيم، عام 2004، في قبوٍ أسفل الجامع الكبير، الذي يصلّي فيه الرّئيسُ الأعيادَ، رفقة ثلاثة أصدقاء كتّاب، منهم رياض وطّار. وقد عادوا إلى مدنهم البعيدة، قبيل عيد الأضحى، فبقيت أعزلَ من المؤانسة والطعام.

كانت همهمات المصلّين تصلني من الأعلى، صبيحة العيد. وكنت أخاطب الرّئيس من الأسفل: «سوف لن تدخل التّاريخ ما لم تحرّر البلاد من الجوع الثقافي». افرنقعوا، بعد الصّلاة، فقلت في نفسي: «سأقصد البحرَ، إن لم يكن للمناجاة فلكتابة قصيدةٍ». لا أذكر أنّني كرهتُ حياتي، مثلما كرهتها في تلك اللّحظة. لماذا لا نكتب عن اللّحظات التي كرهنا فيها الحياة؟

نزلت السلّم المحاذي لقصر رياس البحر، في حيّ باب الوادي، فإذا بي أسمع وحوحاتٍ ذكوريةً، بما يدلّ على أنّ أحدهم فوق إحداهنّ. وهو ما دفعني إلى أن أطلب من خطواتي ألا تفضحني، وأمنحَ أذنيّ لجهة الشّهوة.

كان الفتى يستحضر، في خياله، فتاةً اسمها فاطمة. وعرفتُ من خلال مخاطبته لها، كأنّها في متناوله، صفاتِها وأفعالَها وعلاقتَه المتشنّجةَ بها. أنهى وهمَهُ الجسديَّ المقدّس، فتسلّلتُ إلى الشّاطئ، وأنا مدجّج بالجوع وبمعلوماتٍ كثيرةٍ عنهما. متمنيًّا أن ينضمّ إليّ هناك، وقد لمحتُ زوّادةَ طعامٍ يحملها بيسراه.

جلس الفتى على الرّمل، وأخرج من الزوّادةِ العزيزة خبزًا وجبنًا ومشروبًا وتبغًا. أقصد ما كنتُ بحاجةٍ إليه تمامًا. فبيَّتُّ أن أشاركه إياه. سلّمتُ عليه، وطلبت منه سيجارةً، فأعطانيها بطريقةٍ أوحت لي بأنّه لا يرغب في التّواصل معي. ألقيت بطعمي الأوّل: «ربّي يجمعك بمن تحب». استدار مخطوفًا: «آمين»، قالها بسرعةٍ وحرارةٍ لخّصتا لهفتَه إلى فتاته. قلت، وأنا أمنح عينيَّ للبحر: «ستجتمعان». قال: «كيف عرفت ذلك؟». ألقيت بالطعم الأكبر: «ألم تعْنِ لك هذه الرّيشة شيئًا؟ إن شئتَ أخبرتك باسمها وبتفاصيل حياتها».

سردتُ عليه حكايتَه مع فاطمة، مستعينًا بما سمعته منه، وهو يستحضرها في خياله تحت السلّم. وبخيالي الذي تطوّع لمساعدتي على أن يتنازل لي طواعيةً عن بعض زاده، فراح يُطعمني بيده ويسقيني. وهي من العتبات الأولى، التي عرفت فيها كيف يُعانق الواقعُ الخيالَ في الكتابة السّردية، من غير أن ينفي أحدُهما آخرَه.

تحت الرّعاية السّامية لتعدّد الأصوات

كان الأستاذ محسن سليماني مديرًا للقناة الإذاعية الأولى، والأستاذ مسعود بولطيور مديرًا للإنتاج فيها، عام 2005. فاحتضناني ومنحاني مساحةً أثيريةً معتبرةً. فيها المباشر وفيها المسجّل. فصار متاحًا لي أن أصرف على نفسي، وقد استقلت من المكتبة الوطنية الجزائرية، وأدفعَ تكاليف الإيجار في فندق «الحديقة» المحاذي للمسرح الوطني الجزائري، قبل أن ينهار تمامًا، ثمّ في حمّام «بستان الجنوب» بباب عزّون.

لم يكن متاحًا، في هذا الأخير، أن أستقلّ بغرفةٍ وحدي، فكنتُ ثانيَ اثنين في غرفةٍ تطلّ على صحن الحمّام. أنا الثّابت فيها، بينما يتغيّر الآخرُ يوميًا، فلا أدري من يطلع عليّ قبل الغروب.

قد يكون تاجرًا صغيرًا، أو جامعيًا قدم للتسجيل، أو مريضًا استبق موعد المعاينة في المستشفى، أو بطّالًا يبحث عن شغلٍ، أو سمسارًا يتصيّد صفقةً من الصّفقات، أو متسوّلًا محترفًا في تقمّص الأدوار المثيرة للشّفقات، أو عسكريًا لفظته المسافات البعيدة، أو كاتبًا قصد معرض الكتاب. أذكر أنّه بات معي، من هذا الصّنف، محمّد بن زيان وعيسى شريّط وقلّولي بن ساعد ويوسف بوذن والخيّر شوّار.

كنتُ أرى في كلّ وافدٍ حكايةً، فأهيّئ كلّ الظروف النفسية والفكرية والمعنوية، لأن يسرد عليّ نفسَه، وأسردَ عليه نفسي، بعيدًا عن التحفّظ

والوسوسة. وهي التجربة التي علّمتني ألا أفرض نفسي على شخوصي لاحقًا. وأن أَدْخُلَ في نصوصي بصفتي صوتًا من الأصوات، لا راويًا عليمًا. كما كانت الخلفيةَ الأمَّ لكتابي الثّاني « أجنحة لمزاج الذّئب الأبيض»، الصادر عام 2008، حيث ستّة وثلاثون نصًّا سرديًا، ببطلٍ واحدٍ هو الولهي بن الجازية صاحب الرّيشة.

اكتشف الشّاعر عبد العالي مزغيش وضعي، فترك مأواه عند أخيه، والتحق بي في الغرفة. فكان يدفع سعر سريره والسّرير الثّالث حتى نبقى معًا. وكنت أحاكيه فترةً، ثمّ أنخرط في كتابة نصّ جديدٍ دفعةً واحدةً، فكأنّني أقتل الموت باستحضار ما سمعت من الأصوات. وكان صوت «غانو» مسيّر الحمّام يعلو من الأسفل: «طفّيو الضّو»، فتستمرّ الحكاية إمّا في الأحلام، وإمّا همسًا في الظّلام.

تحت الرّعاية السّامية للذّاكرة

أقرّ لأكثرَ من صوتٍ في حياتي، بالفضل في برمجتي على الكتابة السّردية، أنا الذي كان خاضعًا للشّعر وحده. ويأتي سُوّاقُ سيّارات الأجرة، التي ركبتها إلى مدن الجزائر، في طليعة هذه الأصوات. منهم عمّي بوجمعة البلعبّاسي، الذي كنت أتقصّد الرّكوبَ معه، كلّما سافرت من العاصمة إلى مستغانم.

[2]

على يديه اللتين تسهوان عن المقود أحيانًا، من غير أن تُغْلِتا المركبةَ، تعلّمت كيف يجب على الرّاوي أن يصمت تمامًا، لحظة ينطلق أحدُهم في التطهر بالسّرد.

[3]

ركب معي، في ديسمبر 1993، شابٌّ سألته بمجرّد أن رأيته إن كان عسكريًا. فقد كنت أقبض عليهم بطاقاتهم، وأدسّها في مكانٍ ما في جوف السيارّة، خوفًا عليهم من أن يُعرفوا في الحواجز المزيّفة. لكنّ صاحبنا قال لي إنه طالب في جامعة مستغانم. وقبل أن ندخل خميس مليانة وجدنا أنفسنا، فجأةً، أمام حاجز لشبابٍ ملتحين يحملون سلاحًا.

استوقفوني فوقفتُ، وسألني أحدُهم: «هل معك خرفان»؟ وهي عبارة كانوا يعنون بها في تلك الأيّام شبابَ الخدمة الوطنية. فأجبته في هدوء: «لا أظنّ ذلك». قال لي، بعد أن فحص السيّارة من الدّاخل: «إنّ خبرتك كانت ستجعلك. لو وظّفتها. تعرف أنّ هذا خروف». وأشار إلى الشابّ الذي قال إنّه طالب في الجامعة.

أمره بالنزول فشرع الفتى يتمتم بالشّهادة. وبعد لحظاتٍ قال لي من أنزله: يظنّ أنّ جواربه بعيدة عنّا! كان يُخفي البطاقة العسكرية هناك. دار إليه في سرعة البرق، وخطفه من رجليه فسقط أرضًا، ماسكًا إياه من صدره وباركًا عليه بركبتيه. غمز رفيقًا له، فجرّ عليه بالسكّين.

سكت عمّي بوجمعة البلعباسي التاكسيور. لا شكّ في أنه دخل في الحالة من جديدٍ، فعجز عن الكلام. تمامًا كما في الحالة الأصل، ثمّ رفع رأسَه إلينا في المرآة: أتدرون السّبب الذي جعلني لا أنسى ذاك الفتى بالذّات؟ عبارة قالها وهم يهمّون بذبحه: أناشدكم بالله العظيم وبرسوله الكريم ألا تشوّهوا وجهي حتى لا تحزن أمّي أكثر. لكنهم جدعوا أنفَه وأذنيه وشفتيه. أخرج الذابحُ منديلًا من جيبه، ووضع الأعضاءَ المجدوعة فيه: هذه هديتنا إليك لأنك تسترّتَ على الخروف.

[4]

سأحكي لكم هذه أيضًا: في 17 ماي 1995 حان دوري لأنادي على المسافرين من العاصمة إلى مستغانم. كان النهار ظهرًا، وكان الملل سيّدًا. فقصدتني أربعُ فتياتٍ يرتدين الحجابات، وليس على وجوههنّ ماكياج. وطلبن منّي أن أنطلق، لأنهنّ سيدفعن المقعدين المتبقيين.

كان كلّ شيءٍ عاديًا. وما أن تجاوزنا البليدة بقليل، حتى نزعن الخمارات وأشعلن السّجائر وشرعن في التصفيق والغناء. قالت من بدت زعيمةَ الموكب: كيف سمّاك الله يا عمّي؟ قلتُ: لا تهمّ الأسماء يا مخلوقة. هل معكنّ حشيش؟ قالت: نعم. قلت: ارْمِينَهُ، فرجال الأمن لا يتسامحون معه، وافعلن ما ظهر لكنّ، فأنا أيضًا أحتاج بعضَ الهبل.

كنتُ يومها مجروحًا بذبح تاكسيور عشنا معًا سنواتٍ طويلةً، وحدثت لي أمور أخرى لا تعجب، فانخرطت معهنّ في الغناء. كنّا نغنّي ونصفّق ونُدَرْبِكُ مثل المجانين. وحين تجاوزنا وادي رهيو بقليل وجدنا رأسًا معلّقةً في شجرة.

ضاعفتُ سرعة السيّارة، فصرختْ إحداهنّ، كانت تُسمّى حميدة: توقف.. توقف. سانَدْنَها عفويًا في الطلب: توقف.. توقف.

توقفتُ فنزلن/ توجّهن إلى الرّأس/ حرّرنها من الشجرة/ رحن يندبنها كأنها لأبيهنّ/ لفّتها حميدة في خمارها/ دفنتها في خشوع/ قرأن الفاتحة عليها/ سأريكم المكانَ حين نصل إليه/ عدن إلى السيّارة ذابلاتٍ، فقالت حميدة: هل انتهت رحمة ربّي في هذا البلد؟ إذا لم يكن له أهل، ألا يبكي عليه أحد؟

قلت: وما يدريك أنه لإرهابي؟ قالت: ما يهمّ أنه لإنسان. وشرعتْ تردّد أغنية «راس المحنة».

تحت الرّعاية السّامية للواقع

كان كورنيش وهران، ذات عشيّةٍ من صيف عام 2007، ضاجًّا بالحمام والبشر، الذين لا يُراقب أحد منهم أحدًا. وكان فتًى لا يتجاوز العشرين يجلس على أحد مقاعد الكورنيش، ويتأمّل البحر بعينين باكيتين في تصوّفٍ كبيرٍ، غير آبِهٍ بمن يغدو ويروح.

قلت له، وقد جعلت جلوسي إليه طبيعيًا: ما هذه الموسيقى التي تسمع؟ أعطاني الكتمان بحركة عفوية توحي بأنه لم ينزعجْ من فضولي. فهزّني الشّاب حسني بصوته الحي: «قعْ النّسَا اللي خلقهم ربي.../ ما يجونيش كاللّي بغاها قلبي» (5). قلت وأنا أتأمّل البحرَ: كأنّه لم يمتْ رحمه الله. قال الفتى: وسوف لن يموت. قلت: لماذا في رأيك؟ قال: كنتُ صغيرًا عندما قتلوه، لكنّني عندما كبرت وجدت أنّه كان يُغنّي للأشياء التي لا تنتهي في الإنسان. كان يغنّي للحبّ، في الوقت الذي كان فيه الإرهاب يحصد الأرواح. هل تعلم لماذا كنت أبكي؟

قرّبت الحكايةُ/ الجرحُ بيني وبين سفيان، فعشّاني في بيته، مع أمّه، وقد كنت مدعوًّا للعشاء مع أصدقاء يُدرّسون في الجامعة. ثمّ عرض علي أن يأخذني إلى مكانٍ وصفه بالمهبول، فوافقتُ على طول.

تَسَرْسَبَ بي في حيٍّ عتيقٍ، ثمّ طرق بابًا لا يوحي بأنه شغّال، ففُتِح لنا بعد كلمة السر. سلام على الفتى الفاتح، وهو يرحّب بنا/

سلام على الفتية العشرة، الذين كانوا محلّقين في القبو، توجّسوا خيفةً من وجهي التلفزيوني، إذ كنتُ أقدّم حصّتين وقتها، فأعطاهم سفيان غمزة الأمان/ سلام عليهم، وهم يتحلّقون حولي، ليلفظوا حكاياتهم دفعةً واحدة/ سلام علي، وأنا أنسّق بين الحكايات، فلا يفوتني منها خيط واحد. هناك كفرت بالرّاوي العليم في النصّ السّردي، حيث يُرافق الشّخوصَ حتى إلى المرحاض، وقتلته تمامًا في روايتي «ندبة الهلالي».

ما أن خرجت من القبو المحلّق، مصحوبًا بأسف «رواتي» على انسحابي المبكّر، حتى طلبني أصدقائي الجامعيون، وأمطروني بالعتاب على أنّني تركت طعامهم وشرابهم معلّقًا. التحقت بهم، فوجدتهم حزاني على ضياع سيّارة أحدهم. «خذوني إلى المكان الفلانيّ»/ قلت.

وجدت صعوبةً في العودة إلى القبو المحلّق، وفي إسكات الشّباب، وقد راحوا يرقصون فرحًا بعودتي، وفي القول إنّ سيارة رقمها كذا ضاعت من صديقي. اختلى سفيان بالفتيان مدّة ربع سيجارةٍ، ثمّ عاد إلي: هل تضمن لنا الأمان، فيجد صاحبُك سيّارته، صباحًا، في المكان الفلاني؟

---

5 . من نجوم أغنية الرّاي المؤثرين في الجزائر. اغتيل عام 1994.

تحت الرّعاية السّامية للمفاجأة

كانت الطائرة، وهي تتوغّل في السّماء إلى مدينة تمنراست، في أقصى الجنوب الجزائري، من عام 2010، شبيهةً بقصيدةٍ محلّقةٍ. لكنّها قد تتوقف في أيّة لحظةٍ، فأتحوّل إلى مجرّد رقمٍ في حصيلةٍ يُقدّمها مدير الطيران. يومها كانت تشبيهاتي ذاتَ روحٍ شعريةٍ، رغم أنّني كنت أصدرت تجربتين سرديتين هما «أجنحة لمزاج الذئب الأبيض»، وجلدة الظل: من قال للشمعة أف؟».

[2]

كنتُ مدعوًا من طرف خادم الفنّانين محي الدّين بن محمد، قدّس الله سرَّهُ، لإحياء جلسةٍ أدبيةٍ في دار الثقافة. ومن عادتي ألا أنام في اللّيلة الأولى، التي أدخل فيها مدينةً لم أزرها من قبل، فالأمرُ يُشبه عندي أن ينام عريس في ناصية اللّيلة الأولى مع عروسه. فخرجتُ إلى المدينة، قبل أن أرتّب أغراضي أصلًا.

[3]

أستطيع أن أواجه حتفي، لكنّني لا أستطيع أن أواجه امرأةً تبكي. فتوجّهتُ عفويًا إلى الصّبية الشّقراء، التي كانت تنتحب عند مدخل فندق «تركّفت». جلستُ إليها/ التزمتُ الصّمتَ/ حدّقتُ في السّماء مليحًا، ثمّ رحت أخاطبها. الهاء هنا تعود على السّماء والفتاة كلتيهما، فقد كانت روحُها سماءً أيضًا،

ومن تجلّيات ذلك أنّها لم تعتبرني غريبًا، فتتشنّج من وجودي.

[4]

أنا «آن» من النّرويج. متخصّصة في الدّراسات الشرق أوسطية، ولولا أنّي تأخّرت في تمنراست، لكنت ناقشتُ، في أوسلو، مذكرةً عن أولوف بالم رئيس الوزراء السّويدي، الذي اغتيل عام 1986، بسبب مساندته للحقّ الفلسطيني.

. هل كان بقاؤكِ في تمنراست من حاجة؟
. بل كان بسبب رجل.

[5]

لم يكن من عادتي أن أتمنّى أن أكون واحدًا غيري، وفي تلك تمنّيت لو كنتُ مسعود التارقي بائعَ الفضّة، فتحبّني «آن» النّرويجية، وتؤجّل رحلتها من أجلي، وتقول لي إنّها مستعدّة لأن تمنحني ما أريد، مقابل أن أمنحها قلبي. ما به الفتى مسعود التارقي رفض عرض هذه الملاك؟!

[6]

عرضتُ على «آن» أن ترافقني إلى قلب المدينة، فقالت إنّها ستتفادى إحباطها بالنّوم، على أن نتعشّى معًا في مطعم الفندق.

[7]

لا فرق بين حرارة الجزائر العاصمة وحرارة تمنراست. لكنّ المسافة بين حفاوة تجّارها، تفوق المسافة بينهما، 1981 كيلومترًا. كنتُ ناويًا أن أشتري خاتم فضّةٍ، فدخلت إلى أكثر المحالّ أناقةً وانسجامًا مع روح المكان والإنسان. ولم أستطع أن أتمالك نفسي، حين قرأت الاسم

الذي كان ينقشه صاحب المحلّ على حاملةٍ جلديةٍ للمفاتيح: «آن». مسعود!!؟ .

[8]

أنا مسعود من مدينة جانت. ورثت فنّ الفضّة والنقش على الجلد عن أبي، الذي ورثه عن أبيه. دخلت تمنراست لأستقلّ بحانوتي، وأجمع من المال ما يكفيني لأتزوّج فتاتي.

. هل جئت على متن الطيّارة؟

. نعم.

. لو أعطتني «آن» النّرويجية وزن الأرض ذهبًا، على أن أستبدلها بفتاتي ما فعلت.

[9]

لم أكن قادرًا على أن ألتقي «آن»، في مطعم الفندق، بعد الذي سمعته من مسعود. فصعدت إلى غرفتي مباشرةً ولم أغادرها. لكنّني التقيتها بطريقةٍ مختلفة تمامًا. لقد أطلعني مسعود على بعض رسائلها إليه، فانبطحتُ على السّرير أقرأها، ونسيتُ أمر العشاء. كيف تستطيع امرأة أن تحبّ رجلًا بهذا الصّفاء؟

[10]

رتّب لي محي الدّين، بعد يومين، مبيتًا في قمّة الأسكرام، فانطلقت مع السائق «صالح». كانت السيّارة رباعيةُ الدّفع تقضم الطريقَ المتوحّشَ مثل ناقةٍ تأكل شوكًا.. لا سرعة ولا ملل. وكنت كلّما لمحت وفدًا من السياح قبلنا أو بعدنا، في وادي أفيلال، كلّما عاد إلي الإحساس بالحياة.

[11]

لماذا كنت أتصوّر الأسكرام منتجعًا فارهًا، بينما هو فضاء يمنحك الفرصة لأن تعيش حياة البرية؟ بضعة أكواخٍ بسيطةٍ تقدّم طعامًا بسيطًا، بساطة كنيسة الأب شارل دوفوكو، هناكَ في قمّة تحسّ فوقها بأنّك خطيب الشمس.

[12]

جلستُ فوق صخرةٍ رءوم، وأسلمت كلّي للمشهد: ليل مثقوب بنجومٍ فتيّة، فكأنّه غربال بين يدي عجوزٍ قروية/ عواءُ ذئبٍ يشجُّ الأرواحَ/ أيائلُ تتناطحُ في الفاصل بين رأس الجبل وسُرّة السّماء/ طائرُ «مولا مولا» يتنقّل بين الأحجار، مثل ومضة هايكو عطستها لوزة يبانية. نار لهّابة هناااااااااااااااك في الأسفل، يرقص حولها بشر من غير فروق/ همهمات إنجيلية تطلع من الدّير، حائرةً بين أن تذهب إلى الخالق أو المخلوق. وإذا بصرختين، على مقربةٍ منّي، ردّدهما الوجود.

[13]

طرتُ نحو الصّوتين، فإذا هما لآن ومسعود.

تحت الرّعاية السّامية للجوع

كان حرج أعوان الأمن المكلّفين بحراسة التّلفزيون الجزائري كبيرًا، نهاية عام 2009، وهم يقولون لي إنّهم يملكون تعليمةً، من السّيد المدير العام عبد القادر العلمي، تقضي بعدم السّماح لي بالدّخول. أنا الذي التحق بالشّاشة منذ 2005، وقدّم ثلاثة برامجَ ثقافيةٍ، حاور فيها قطاعًا واسعًا من الكتّاب والباحثين والفنّانين والمشرفين على المؤسسات المنتمية إلى هذه الحقول.

أحسست عميقًا بالظلم. ثمّ تضاعف هذا الإحساس لدي، بإعراض الإدارة عن تقديم سببٍ معيّن لإبعادي، فكأنّها أرادت القولَ إنّك عاري الكتفين، فعد من حيث أتيت. بالموازاة مع حصولي على درع الرّيادة العربية في التّنشيط التلفزيوني، من طرف جامعة الدّول العربية بعمّان.

واجهتُ، على مدار خمسة شهورٍ، صراعًا بين صوتين. صوت يحثّني على الإعراض عنهم، والخوض في تجاربَ أخرى، مثلما فعلت مع غيرهم من قبل، وآخر يحثّني على المطالبة بحقّي، والمقارعة من أجل استرجاعه. فكان أن قرّرتُ إضرابًا عن الطعام، بمناسبة اليوم العالمي لحرية الصّحافة، 03 مايو 2010.

أعلنتُ عن الإضراب شهرًا قبل حصوله، حتى أعطي للمعنيين بالأمر فرصةً لأن يستجيبوا لمطلبي المتمثّل في إعادتي إلى المؤسسة، فلم يتحرّك منهم أحد.

لن أتحدّث عن الأيام الثلاثين، التي تلت الإعلان عن موعد الإضراب لأنها تتشابه. بل سأتحدّث عن اللحظة، التي ذهبت فيها من غرفتي المؤجّرة فوق سينما «الجزائرية»، في شارع ديدوش مراد، رفقة الكاتب والإعلامي سعيد خطيبي، إلى دار الصّحافة حيث سأشنّ الإضراب.

شربت من كأسي بإحساس أنها الشّربة الأخيرة. أغلقت جهاز التليفزيون على أساس أنني لن أشاهده مرّةً أخرى، وأنّه قد يبثّ خبر موتي بعد أيام. ألقيت نظرةً على الكتب التي كانت مزروعة في الغرفة، فودّعت الجاحظ وأبا حيّان والمعرّي وإخوان الصّفا. وقلت لابن تيمية: سامحني يا شيخ. ربّما تعسّفت في حقّك ذات يوم. ولمحمود درويش: إنّ المسافة بيننا لم تعد بعيدةً. ولبعض الكتّاب الذين لا أفعالهم ونصوصهم: هي لكم الحياة. افعلوا فيها ما شئتم، وواصلوا رداءتكم واحتكاركم للأضواء.

هناك انتبهت إلى أنّ إحساسي بشعرية الأشياء لم يكن كافيًا. شعرية الفنجان – شعرية النافذة – شعرية المرحاض – شعرية الحذاء – شعرية الباب – شعرية الملعقة. وهو ما اشتغلت عليه بعدها، في تجربتي «ماء سريع الالتهاب».

ذهبت إلى دار الصّحافة، التي تحمل اسم روائي جزائري اغتيل في التسعينيات هو طاهر جاوت، وأنا مدجّج بأحاسيسَ متناقضةٍ. إذ كان للخطوات التي قطعتها من شارع ديدوش مراد أحد مفجري ثورة التّحرير، إلى دار الصّحافة، أكثرُ من مفارقةٍ فاضت على تلك المسافة القصيرة. وهذا من بين ما يستفزّ الكاتب داخلي.

تمنّيت أن تطول تلك المسيرة، كي أراجع مفهومي للكتابة والحياة. لكنّها لم تستمرَّ أكثر من ربع ساعة. هناك زمن مسطح نعدّه بالدّقائق

والسّاعات والأيّام والأسابيع والشّهور والأعوام، وزمن نفسي خاصّ نستطيع في دقيقةٍ منه أن نلخّص كونًا. وإنّ إغفال هذا المعطى، في التعامل مع النّص السردي شخوصًا وحالاتٍ، واحد من مداخل الرّداءة إليه.

وجدت، حين بلغت دار الصّحافة، لفيفًا من الشّرطة في انتظاري. فقد شافوا في الجرائد الإعلانَ عن الإضراب. أصبتُ بالرّعب، أنا الكائن المسالم، الذي لم يطمح يومًا إلى أن يكون إداريًا أو سياسيًا أو رجلَ أمن. وقد زوّدتني مرافقة سعيد خطيبي ببعض الشّجاعة، لأنه تعوّد على استجوابات الشّرطة له، بحكم انتمائه إلى جماعة «برّاف».

جاءني شرطي قائلًا: «أنا لا أعرفك أيّها الشّاعر. لكنّ زوجتي أوصتني بك خيرًا، فهي إحدى مشاهداتك. هل تطلب شيئًا؟». قلت: أريد أن أعلّق بيان الإضراب. قال: أنا من سيفعل ذلك.

أن تكون وجهًا تليفزيونيًا، فيراك الناس متألقًا، وينسجون حولك الحكاياتِ، منها أنك تقيم في الأماكن الرّاقية، وتملك سيّارةً فاخرةً، وبيتًا لا يُتاح للجميع، قياسًا على زملاء لك، ثم يرونك ملقًى على قارعة الطريق، أمر يحتاج إلى صلابةٍ خاصّة.

كانت لحظة مواجهة العراء، في اللّيلة الأولى صعبةً. إذ تفرّق النّاس الذين كانوا معي، عند منتصف الليل، ولم يبقَ إلا سعيد خطيبي. هناك انتابني إحساس غريب جدًا، قام على هذه الأسئلة: لماذا لم تكن إرهابياً؟ لديك زملاء في الدّراسة، أصبحوا أمراءَ في الجبل، ثم عادوا غارقين في الثّراء؟ لماذا لم تصبح رياضيًا أو تاجرًا؟ لكنّني لا أستطيع أن أصف لذّة اللحظة، التي انتصرت فيها على نفسي فقلت لها: أنا اخترت الشّيء الذي يبقى. ولم أندم بعدها أبدًا.

واجهت العراءَ، فأصبحت شريكًا لكائناتٍ نتقزّز منها في العادة، مثل الجرذان والصّراصير والكلاب الضالّة والمجانين. لم أستطع أن أنام حتى لا أحرم نفسي منها، ولم أستطع أن أبقى صاحيًا لأنّني كنت متعبًا وجائعًا. هل سأغادر الواقع إذا نمت؟ أم أنّه سيُلاحقني في النّوم، فيتداخل الواقع بالخيال وتنتفي الحدود؟ أليست لحظةً سرديةً بامتياز؟

أحسست بامتنانٍ عميقٍ للمثقفين والفنّانين والإعلاميين الذين ساندوني. لكنّ بؤرة اهتمامي توجّهت إلى النّاس، الذين لا يُحسبون على حقل الثقافة والفنّ والإعلام.

كنت نائمًا عند مدخل العمارة المقابلة لدار الصّحافة. وكان يأتيني شابّ يغدو ويروح متحدّثًا من غير أن ينبس بكلمة. كانت يداه تتحرّكان في الفضاء، وشفتاه تقولان شيئًا لا يصلني، لكنّه يوحي بأنه متذمّر من الوضعية. سألته مرّةً عن الأمر، فقال: لا أستطيع أن أفعل لك شيئًا، ما عدا أنّني أمرت زوجتي بألا تطبخ طعامًا تصل رائحتُه إليك، فتتشهى الطعام.

وجاءتني عجوز بالقهوة والخبز، محاولةً أن تثنيني عن الإضراب. فحلفتْ بأجدادي وبكلّ ما يُحرّك إحساسًا في نفسي، أن آكل وأشرب من يدها. وحين رفضتُ، أجهشتْ بالبكاء وحكت لي قصّتها مع الجوع في عام الجوع، قبل الاستقلال الوطني، حيث وصلت إلى أن تأكل جذوع الأشجار والقطط النّافقة.

كنت أتغذّى معنويًا من أشياء أخرى غير الطعام. فلم أعد بحاجةٍ إلى المرحاض في تلك الفترة. حيث تحرّرتُ من عقدة لازمتني منذ طفولتي. إذ كان أبي يقول لي، كلّما أراد أن يرفع همّتي: «خرّاي». وها أنا لم أعد أمارس هذا الفعل يا بَيْ. كيف حالك في قبرك؟ كيف هي الحياة هناك؟

أمّا هنا، فولدك الوحيد استطاع أن يصبر على الجوع، لكنّه لم يستطع أن يصبر على الظلم. أنت علّمتني ألا أَظلم أو أقبل أن يظلموني، فلا تلمني على أمرٍ تعلّمته منك. ولا تلمني على أنني قد ألحق بك، فأترك أمّي وزوجتي وابنتي وحيداتٍ، فقد جعلتهنّ وديعةً عند ربّي.

زاد إحساسي الملائكي، وأنا طريح فراشٍ أحضره لي صديقي الفنّان سعد بن خليف، وزاد معه إحساسي بالفنون.

ليلةً.. جاء الفنّان علاء الدّين خمّار، من مدينة بسكرة، ليواسيني بعزفه على النّاي، فكأنّني اكتشفت النّاي للمرّة الأولى. تذكّرت مقولة جلال الدّين الرّومي «لا أظنّ هذه السّماء إلا من نفخة هذا النّاي»، فرحت أتخيّل السّماء فقاعةً تكبرُ، وأتتبّعها ببصري حتى ظنّ صديقي الكاتب والإعلامي علّاوة حاجّي أنّني في طريقي إلى الرّفيق الأعلى.

كنت أعرف فتياتٍ في محيطي العاصمي. ولم أنتبه إلى أنّهن رائعات الجمال إلا في تلك الأيّام. تساءلت: هل سأموت فعلًا؟ هل هو المصير الذي أملى عليّ هذا العطش للحسن؟ يقال إنّ الإنسان يكون مريضًا مرض الموت، فإذا اقترب أجلُه، أصبح صحيحًا، فأقبل على متع الحياة، ثم مات فجأةً. خفتُ قليلًا.

زارني شابّ تعرّفت عليه، حين أقمت شهورًا في «الأقبية الثلاثة» بالحرّاش، عام 2006، فقال لي: هل ترى شعار «نموت وما نهاجرش» واقعيًا؟ قلت: لن أهاجر. قال: هل أنت قادر على ذلك ولم تفعل؟ قلت: أملك عروضًا جادّة من الخارج. فأخرج لي ما تحت سرواله، ولم أره بعدها أبدًا.

لقد جعلني الجوع أعيد النظر، في التفّاح واللّحم والكرز والكسكسي والبيض والعصير، وما إليها من المأكول والمشروب. فاكتشفت أنني لم

أوفِ تلك النّعم حقَّها من الشّكر والانتباه والكتابة. لماذا أكتب عن القضايا الكبيرة، وأنسى الكتابة عن طعامي وشرابي، وما يُحيط بهما من لحظاتٍ ووجوهٍ حميمة؟

اشتهيت «بوزلّوف». وهو رأس الخروف، الذي يُشوى أو يُطهى في المرق. فيكون عصيًّا على المعدة بعد الصّيام أو الإضراب عن الطعام. ما تسبّب لي في مشاكلَ على مستوى الأمعاء، فدخلت بسبب ذلك المصحّةَ مرّتين. كان الطبيب الذي عالجني على علمٍ بأنني كنت مضربًا حديثًا، من خلال الصّحافة المكتوبة، فقال لي، وقد أخبرته أنني أكلت بوزلّوف، بعد أن أوقفتُ الإضرابَ: كان عليك أن تقصد البيطري.

كان عمر علياء وقتها تسعة أشهر. وكنت أكلّم أمّي، فأكذب عليها بالقول إنّني أغشّ في الإضراب، حتى أخفّف خوفها من فقدان وحيدها. وهي من الإشاعات التي استعملت أطراف بعضَ الصّحافيين والكتّابِ، في أن تشوّه بها إضرابي. فلمّا صفعتهم النّزاهةُ، راحوا يقولون إنّ بوكبّة قبض 500 مليون من إدارة التلفزيون، بينما لم أقبض، عبر حسابي الجاري، إلا سدس هذا المبلغ، عن ثلاثةٍ وعشرين شهرًا.

اكتشفتُ، بعد عودتي، أنّ أمّي هي الأخرى كانت مضربةً. ولأنها لم تشرب الماء مع السّكر أو الملح، فقد كاد جسدها يجفّ. كما جفّ ريقُ بعض الأصدقاء، وهم يحثّونني على أن ألتحق بوظيفتي، بعد أن أمضت إدارة التلفزيون عقدًا معي. فكنت أقول: لقد حقّقتُ هدفي من الإضراب، وهو أن أغادر بمحض إرادتي، لا بجرّة مزاجٍ من مسئولٍ يُمجّد الوطن في نشرات الأخبار، ويذبح مبدعيه في الكواليس.

الفهرس

تحت الرّعاية السّامية للرّاوي 121
تحت الرّعاية السّامية للشّاعر 127
تحت الرّعاية السّامية للخرافة 129
تحت الرّعاية السّامية للتّشرّد 132
تحت الرّعاية السّامية للجنون 135
تحت الرّعاية السّامية للخيال 139
تحت الرّعاية السّامية لتعدّد الأصوات 141
تحت الرّعاية السّامية للذّاكرة 143
تحت الرّعاية السّامية للواقع 147
تحت الرّعاية السّامية للمفاجأة 148
تحت الرّعاية السّامية للجوع 152

صدر للكاتب

1 . من دسّ خفّ سيبويه في الرّمل؟ نصوص. المكتبة الوطنية الجزائرية ودار البرزخ/ 2004.

2 . أجنحة لمزاج الذّئب الأبيض. نصوص. دار ألفا/ 2008.

3 . جلدة الظلّ: من قال للشمعة أف؟. رواية. دار ألفا/ 2009.

4 . عطش السّاقية. تأمّلات. دار فيسيرا/ 2010.

5 . نيوتن يصعد إلى التفّاحة. مقالات. دار التنوير/ 2012.

6 . ندبة الهلالي: من قال للشمعة أح؟. رواية. الوكالة الوطنية للنشر، التوزيع والإشهار/ 2013.

7 . يبلّل ريق الما. تجربة زجلية. دار فيسيرا/ 2013.

8 . الثلجنار. تجربة زجلية مشتركة مع عادل لطفي. بيت الشعر في المغرب/ 2014.

9 . وحم أعلى المجاز. سيرة نص قبل الكتابة. دار فضاءات/ 2015.

10 . كفن للموت. قصص. دار العين/ 2016.